

الدار العربية للعلوم ناشرون  
Arab Scientific Publishers, Inc.



# إبراهيم نصر الله شمس اليوم الثامن رواية

المهارة الفلسطينية

يُسمح للكبار بقراءتها



شمس اليوم الثامن

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: نيسان / أبريل 2023م – 1444هـ

**الدار العربية للعلوم ناشرون**  
Arab Scientific Publishers, Inc.

جميع الحقوق محفوظة للناشر:

التوزيع في المملكة العربية السعودية

إصدار

دار إقراء للنشر

الدار العربية للعلوم ناشرون م م ح

مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر

المنطقة الحرة، الشارقة

الإمارات العربية المتحدة

جوال: +971 585597200 - داخلي: 0585597200

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون

 facebook.com/ASPArabic  twitter.com/ASPArabic  www.aspbooks.com  asparabic

THE SUN OF THE EIGHTH DAY ♦ IBRAHIM NASRALLAH

إبراهيم نصر الله شمس اليوم الثامن

رواية

يسمح للكبار بقراءتها



الدار العربية للعلوم ناشرون  
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

إلى روح عائشة علي.. أمي

أربع مفاجآت

قبل أن...

قالت لنا أمي: "قال جدكم":

كان ياما كان في قديم الزمان في فلسطين، قبل أن يتزوج أبي من أمي، أنني كنت مزارعاً، وأملك جملاً كان أفضل صديق لي من بين كل الكائنات التي عرفتها<sup>1</sup>. ورغم أن البعض كان يظن أنه جمل مثل كل الجمال، إلا أنني كنت أعرف أن لا جمل يشبهه. أقول ذلك لأن كثيراً من الناس يعتقدون أنه ما دام هذا الكائن الجميل يملك سنّاماً ورقبة طويلة وأربع أرجل فهو كغيره. هذا الأمر كان يزعجني، وأستطيع أن أضيف دون مبالغة: كان يزعج الجمل أيضاً؛ وقد كان ذلك واضحاً حين تقدّم مني ذات يوم رجلٌ في السوق وسألني: "هل تبيعني هذا الجمل؟" فأجبته: "هذا جمل لا يُباع". فردّ هازئاً: "ولماذا لا يباع؟ إنه في النهاية جمل مثل كل الجمال".

في ذلك اليوم أحسستُ بجملي غاضباً، ولكنه لم يُظهر غضبه؛ مع أن أسوأ شيء في الدنيا هو غضب الجمال. كل ما فعله هو أنه أدار وجهه بعيداً عن ذلك الرجل، وسحب الحبل الواصل بين لجامه ويدي، وكأنه يقول لي: هيا بنا، لا ضرورة لسماع كلام فارغ كهذا.

قلتُ لجملي: "وأنا معك"، وابتعدنا.

في يوم من الأيام، كنت ذاهباً لأحرث الأرض، وكنتُ أكل تمرًا، فسقطت نواة حبة تمرٍ في خُرج جملي. لم أنتبه لما حدث. وفي أحد الأيام، في بدايات الربيع، كنت أتناول طعام غدائي في الحقل، تحت شجرة زيتون، فلاحظتُ أن هناك سَعَفَة نخل صغيرة داخل خُرج الجمل. استغربتُ، فنهضتُ لأحملها وأرميها، لكنني اكتشفتُ أنني لا أستطيع، إذ كانت قويّة. انتبهتُ إلى جذور دقيقة كانت قد اخترقت نسيج الخُرج، فأدركتُ أنني أمام معجزة لم تخاطر ببالي قط.

لا أريد أن أطيل عليكم. كانت هناك فسيلة، أي نخلة صغيرة قد نمت في الخُرج الذي كان فيه بعض التراب.

لم أستطع إبعاد عينيَّ عنها وأنا أعمل في الحقل، وازداد تحديقي إليها حين لاحظتُ أنّها بدأت تكبر، ففركتُ عينيَّ مُعتقداً أنّي أحلم. لم يكن حُلماً. وما إن بدأت الشمس تغرب، حتّى كان ظلُّ الفسيلة- التي أصبحت نخلة صغيرة- يمتدُّ بعيداً إلى آخر الحقل.

لم أعرف كيف يمكن أن أركب جملي وأعود إلى القرية؛ فأكثر ما خشيتُه أن يميل الخُرج والنخلة، وربما يؤدي ذلك إلى سقوط الجمل على أحد جانبيه.

سرتُ بحذر وأنا أقود الجمل. كانت النخلة الصّغيرة ثابتة. هذا جعلني أكثر اطمئناناً، فاستجمعتُ شجاعتِي وقلتُ: "سأركبُ الجمل، لا يُعقل أن أسير مسافة طويلة على قدمي".

سحبتُ رسن الجمل فاستجاب؛ ثنى رجليه الأماميتين- وأنا أنظر إلى النخلة خائفاً أن تسقط- ثم ثنى الخلفيتين، فأصبح جسده كلّه على الأرض. ركبتُه، ويداى ممسكتان بالنخلة الصّغيرة، غير قادر أن أعرف: هل أخشى سقوط النخلة، أم أنّي أخشى سقوطي؟

أمّا الشّيء المؤكّد، فهو أنّي لم أر جملي سعيداً كما رأيته في ذلك المساء؛ إذ كان بين حين وحين يلوي عنقه، وينظر إلى النخلة بزهو، مبتسماً، وينظر إليّ وكأنّني توجّته ملكاً للجمال على الأرض.

## وظنَّ النَّاسَ...

في البداية، ظنَّ النَّاسُ أنَّني أحضرتُ النَّخْلَةَ لأزرعها في البيت. قلتُ بيني وبين نفسي: "لمَ

لا؟"

حين تفرَّق النَّاسُ حاولتُ أن أنزلها من الخُرْج، فانتفضَّ الجمل وتراجع إلى الورا، وتأرجحت النَّخْلَةَ كأنَّها تتهانى عن فعل ذلك. وقبل أن أدرك ما يدور، حدث شيء غريب آخر؛ حطَّت حمامةٌ بيضاء فوق سور البيت، وقالت لي بصوت واضح: "إيَّاك أن تفعلَ ذلك". وطارَت.

لم يسبق أن تحدّثت حمامةً معي من قبل، ولم أكن أعرف أصلاً أنّ الحمام يمكن أن يتحدّث

لغتنا.

لا أريد أن أطيل. في صباح اليوم التّالي، كان يمكن لكلِّ واحد في القرية أن يرى النَّخْلَةَ من أيِّ مكان هو فيه. وعندما تحرّك الجمل، كانت عيون النَّاس مُشرعةً، فهي المرّة الأولى التي يشاهدون فيها نخلة تمشي.

التقتُ جارتِي العجوز الطّيبة إلينا. كانت عيناها مشرعتين أيضًا، ولسانها معقودًا لا تعرف

ما تقول.

## ولم يطلَّ الوقت...

أصبحت النَّخْلَةَ تذهب إلى الحقل، وتعود معي. وجاء أناسٌ من قرى كثيرة ليروا النَّخْلَةَ. وبدأتُ أفكّر في ما يمكن أن أفعله كي لا تميل النَّخْلَةَ وتسقط عن ظهر الجمل؛ فقد أصبحت طويلة للغاية. لكنني أدركتُ أنّ نخلة عجيبة لا يمكنُ إلا أن تكونَ قد فكّرتُ جيّدًا قبل أن تنمو داخل خُرْج.

لم يطلُ الوقت، رفعتُ عينيَّ ذات صباح إلى أعلاها فرأيْتُها تحملُ ثمرًا: بلحًا أصفر بلون الشمس.

في يوم من الأيام، بعد شهر ربّما، وقفَ عصفورٌ ليأكل من بلحها، وكنتُ في الحقل أراقبه بفرح. لكنّ ولدًا صغيرًا أمسكَ بكتلة رطبة من التراب، بسبب مطر خفيف سقط ذلك الصباح، ورماها نحو العصفور، فطار العصفور، لكنّ كتلة التراب التصقت بين سعف النخلة.

قلتُ بيني وبين نفسي: "المهم أنّ العصفور الجميل نجا، أمّا كتلة التراب فستسقط حين ينهض الجمل ويسير في طريقنا جميعًا إلى البيت".

### المفاجأة الثالثة

في منتصف الطريق إلى البيت، سمعتُ صوتًا غريبًا، كأنّ رفًا من الطيور يأكل البلح كلّهُ. نظرتُ إلى الأعلى، وكانت المفاجأة الثالثة بعد مفاجأة النخلة والحمامة المتكلّمة؛ كانت كتلة التراب الصغيرة التي التصقت بالنخلة تكبر، تمتدُّ في كلّ الجهات. خفتُ أن تسقط على رأسي، فقفزتُ عن الجمل؛ رغم أنّ قفزة كهذه كانت خطيرة بسبب ارتفاع الجمل، والسرعة التي قمتُ بها بذلك.

ابتعدتُ عشرة أمتار على الأقل دون أن أبعدَ عينيَّ عن كتلة التراب، وقلبي يخفق بشدّة، وعقلي لا يستطيع أن يستوعب ما يدور. أمّا الجمل فكان مطمئنًا، وكذلك النخلة، وكأنّهما يعرفان بما حدث منذ زمن طويل.

سرتُ أمام الجمل ممسكًا رسنه، وعيني لا تفارق قطعة الأرض التي راحت تتسع وتتسع.

قبل أن أصل إلى البيت، كان الناس قد تجمّعوا حولنا؛ أنا والجمل والنخلة وقطعة الأرض. وعندما دخلنا حوش البيت، ظلّ الناس متجمّعين حوله. وجاء الليل، ولم يناموا. وجاء أناسٌ من قرى أبعد من تلك التي جاؤوا منها حين سمعوا بأنّ نخلة نمت داخل خُرْج، وقطعة أرض نمت فوقها، ووصل الأمر ببعضهم أن قالوا: "إنّ الأرض ثمرُ هذه النخلة العجيبة". وكانّ عيونهم لا ترى قطوف البلح المتدلّية كعناقيد الضوء في أعلاها.

## الشمس تتأخر

في الصّباح تأخّر شروق الشّمس؛ هذا ما أحسستُ به. نهضتُ. كما أنهض في مواعي كلِّ يوم- ونهض جيران البيت. فتحتُ البابَ وخرجتُ، وإذا بقطعة الأرض تُغطّي بيتي، وبيوت الجيران المحيطة به. أمّا الجمل، فكان جالسًا على الأرض، يأكل من العشب اليابس الذي وضعته أمامه ليلة أمس.

رفع رأسه مبتهجًا، كأنه يقول لي: "لماذا تأخرت في النوم؟!!" وهزّ رأسه والسعادة تُشيع من عينيه، وواصل التهام طعامه بتلذذ.

رغم ذلك، كنت متأكدًا من أنه لن يستطيع النهوض، ففوقه نخلة وقطعة أرض.

عاد الجمل ورفع رأسه ونظر إليّ مباشرة، وكأنه يسمع كل ما يدور في رأسي، وأطلق رُغاءً- وهذا اسم صوته- وكأنه يطمئنني.

اقتربتُ منه خائفًا، وأنا أنظر إلى قطعة الأرض العجيبة أكثر ممّا أنظر إلى نخلتي، فسمعتُ صوتًا جميلًا، كنتُ سمعته من قبل يقول لي: "لا تخف من الأرض التي فوقك، فهي طيبة كالأرض التي تحتك".

التفتُ إلى مصدر الصوت، فرأيتُ الحمامة البيضاء نفسها هناك. صفقتُ بجناحيها، وطارَتْ مُبتعدة.

تحسّستُ رأس الجمل مُشفقًا عليه، لكن لم يبدُ لي أنه مهمومٌ بسبب جمّله، بل كان مطمئنًا كجمل لا يعاني من أيّ متاعب مع الجمال الأخرى أو مع صاحبه. بل أستطيع القول إنّه كان يبدو لي سعيدًا أكثر من مساء ذلك اليوم الذي اكتشفَ فيه أنه يحمل نخلة، بل إنّه أسعد من أيّ يوم مرّ علينا معًا في حياته. لا أبالغ في قلبي هذا؛ لأنني أعرف هذا الجمل منذ لحظة مولده.

بعد أن تناولت طعام الفطور، خرجتُ إلى الحوش، فوجدتُ الجمَل واقفاً ينتظرني.

في الطريق إلى الحقل كنت أفكر وأقول لنفسِي: "هذه قطعة أرض ممتازة. ولكن، ماذا يمكن أن أزرعها؟"

قبل وصولي إلى الحقل قررت أن أزرعها قمحًا. هذه قطعة أرض أفضل ما يمكن أن ينمو فيها هو القمح.

\*\*\*

رحتُ أنتظر اليوم الذي تتوقف فيه قطعة الأرض عن الاتساع، ولم يطل انتظاري؛ فكما توقفت نمو النخلة، توقفت نمو الأرض.

عندما تأكدت تمامًا من أنها لم تعد تكبر - وكنت أقيس ظلّها عند منتصف الظهيرة كل يوم لأعرف مساحتها، مُستخدِمًا خطواتي - عندما تأكدت من ذلك، حملتُ فأسِي ومجرفتي، وكلّ ما يلزمي لحرثها، وتسَلّقت جذع النخلة.

بالطبع، كنت أتمنى أن أستخدم بغلاً أو حمارًا أو ثورًا في حرثها. لكنّ وصول حيوان من هذه الحيوانات إلى الأعلى كان يحتاج إلى معجزة رابعة، وإن كنت لم أستبعد حدوثها؛ فبعد أن حدث ما حدث، لا شيء يمنع من أن يكون هناك ثور أو بغل أو حمار في انتظاري في الأعلى.

## مشهدٌ واسع

لم يكن أيُّ ممّا تخيلتُه هناك.

وصلتُ إلى قطعة الأرض بصعوبة؛ إذ كان عليّ أن أُمّر من داخل سَعَف النّخلة، وأشواكها المدبّية. كان رأس النّخلة يخترق قطعة الأرض من منتصفها.

كبيرة كانت قطعة الأرض فعلاً، أكبر ممّا كنتُ أراها من الأسفل، وجميلة؛ أرض حمراء. من فوقها نظرتُ إلى القرية، قريتي، فرأيتها صغيرة. أمّا الأغرّب فهو أنّه كان في استطاعتي أن أرى القرى البعيدة، بل إنني رأيتُ مدينة القدس.

وددتُ لو أستطيع البقاء في مكاني؛ كان المنظر حولي جميلاً إلى حدّ لا يُصدّق.

غابت الشمس، ولولا أنّني أحسستُ فجأة بالبرد بسبب الارتفاع، ورائحة الشّتاء التي لم تنزل في الهواء- لما كنتُ تنبّهتُ إلى أنّها غابت.

نزلتُ، تاركًا خلفي في الأعلى الفأس، والمجرفة، وما حملتُه من أشياء أخرى. وربّما تركتُ عينيّ أيضاً؛ لأنني كنتُ أرى كلّ ما رأيته بوضوح تامّ، بعد أن لامستُ قدمي الأرض، وكأنني لا أزال فوقها.

## خيمة صغيرة

على مدى أسبوع، كنتُ أحملُ كلَّ يوم شيئاً: بذورَ القمح، فرشَةً ولحافاً، وخيمة صغيرة أيضاً. فقد فكَّرتُ أنني يمكن أن أضطرَّ إلى النَّوم- ذات مساء- إذا تأخَّرت في العمل فوقها.

كنت في البداية خائفاً من الحرائث، خائفاً من أن تنهار قطعةُ الأرض إذا استخدمتُ الفأس. لذا قرَّرت أن أذهبَ إلى آخرها؛ مع أنني لم أكن متأكداً مما إذا كانت حوافها تحتملُ ثقلَ جسمي أم لا. بهدوء وحذر سيرتُ، إلى أن وقفتُ على بعد خطوتين من الحافة. حرَّكتُ قدمي اليمنى برفقٍ وأنا أختبر قوَّة الأرض، ثم حرَّكتها بقوة أكبر. كانت الأرض تحتي أكثر متانة مما توقَّعت.

كلُّ شيء على ما يرام.

بدأتُ بحرائثها. أمَّا أفضل ما حدث فهو أنني لم أكن مضطراً إلى بناء سور حولها، إذ لا تستطيع الحيوانات الوصول إليها، ولا اللصوص.

في بعض الليالي، كنت أسهرُ فوقها، أمام باب خيمتي الصغيرة، أراقبُ النجوم، وأنا أحسُّ أنها باتت أقرب، وكذلك السماء. وخطر ببالي أن أزرع نخلة أخرى في الجهة الثانية من الخُرَج، وحين تنمو سأرميها بكتلةٍ من تراب، أو أتسلَّقها وألصقُ التراب بها، فلعله ينمو وتغدو لي قطعة أرض أخرى.

لم أفعل ذلك، إذ أحسستُ أن نخلة أخرى وقطعة أرض أخرى قد تُغضب الجمل والنخلة الأولى وأرضي العالية فيصبح الحمل ثقيلًا لا يُحتمل.

## آراء كثيرة

كان الناس ينظرون إلى أطراف حقل القمح، ويرون السنابل الطويلة. بعضهم كان يحسدني، وهؤلاء هم الكسالى. أمّا من كانوا يهنتونني فهم أصحاب القلوب البيضاء الذين يُقدِّرون قيمة العمل، وجهد الإنسان. إنهم أبناء وأحفاد أجدادنا القدماء الذين وصلوا إلى تلك الحكمة الرائعة: "مَنْ جَدَّ وَجَدَّ"، أي أن من يبذل جهدًا طيبًا يحصد نتائج طيبة.

الفئة الحاسدة تلك حين رأَتْ سنابل قمحي -السنابل التي كنت أقطعُ حُزْمَةً منها كلَّ يوم طعامًا للجمل، فيُصدر رُغَاءً كأنه الضحك- تلك الفئة كانت تتهامس: "انظروا، كم هو مجنون الفتى "عليّ" هذا! لديه أفضل قطعة أرض، ويزرعها قمحًا، بدلًا من أن يزرعها سَمْسِمًا!"

فكرت، وقلت: "لعلهم مُحَقِّقُونَ، فهذه التربة صالحة لزراعة السَّمْسِمِ".

وقال آخر: "مجنونٌ. لو زرعها بطيخًا، لكان أفضل بطيخ في البلاد كلها".

هذا الأخير لم يُقنعني قوله؛ فلو زرعها بطيخًا فسيكون عليّ أن أنزلَ البطيخ -الذي لا بدّ أنّه سيكون كبيرًا جدًّا- إلى الأرض، بصعوبة، والكثير منه سينكسر بالتأكيد.

قلتُ لصاحب الاقتراح الأخير: "إذا وعدتني أن تساعدني فسأزرعها بطيخًا، ولكَ حصّة

منه".

- أنا مستعدُّ، كيف يمكنني أن أساعد؟

- سأرمي لك البطيخ من الأعلى فتتلقَّفه، بطيخةً بطيخةً، ما رأيك؟

- هكذا ستسحقني أوّل بطيخة ترميها إليّ.

## ثمّ جاء الشّتاء

مع مرور الأيام، رأيتُ أناسًا كُثْرًا؛ بعضهم نصحني بزراعة "قطعة الأرض الخصبة"  
-حسب رأيهم- ذُرّةً، فولاً، حمُصًا، عدسًا.

بعد أن حصدتُ القمح، قلتُ في نفسي: "إنّ من قال إنّ عليّ أن أزرعها سيُمسِمًا لم يكن على  
خطأ. سأزرعها سيُمسِمًا في المرّة القادمة".

جاء الصّيف، والخريف، وحمدًا لله أنّ النّخل لا يسقطُ سَعْفُهُ في الخريف مثل كثير من  
الأشجار؛ وإلاّ لكانت قطعة الأرض وقعتُ على رأس الجَمَل، ومات. ثمّ جاء الشّتاء، فكان المطر  
غزيرًا. وكنت أرى الماء ينزل من أرضي العالية كشلالات صغيرة، والجَمَل سعيد وهو يرى  
الجدول تتراقصُ حوله.

## يا للخسارة!

ذات يوم مُشمس، صعدتُ فحرثتُ الأرضَ وزرعتها سِمْسِمًا. وهذا أمرٌ جيّد على أيّ حال، لأنّ المزارع حين يزرع كلّ عام شيئًا مختلفًا يكون محصول زراعته أفضل.

ولكنني قبل أن أهبط، رأني رجل وصرخ بأعلى صوته:

- "ماذا زرعته هذا العام؟"

- سِمْسِمًا.

فضرب كفًا بكفٍّ، وقال:

"يا للخسارة! لو زرعته ذرةً لكان ذلك أفضل بكثير."

رجعتُ بذاكرتي كما يُقال للوراء؛ كما أفعل الآن وأنا أروي قصّتي، فتذكرتُ أنّه الرّجل نفسه الذي طلب مني أن أزرعها سِمْسِمًا حين زرعته قمحًا.

نزلتُ من بين سعف النّخلة، ثمّ عن جذعها بحرص شديد، ووصلتُ إلى ظهر الجمل الذي داعبتُ شعرَ رأسه بين أذنيه- كطفل صغير، وكان هذا يُفرحه جدًّا. اقتربتُ من ذلك الرّجل وقلت له:

"أشكرك على اقتراحك؛ مع أنّه من الصّعب عليّ أن أنفذه الآن. لكن خطر لي وأنا أهبط النّخلة خاطرٌ جيّد، وهو: إذا صعدتَ معي إلى الأرض العالية، وساعدتني أن نجمع حبّات السّمسم، واحدة واحدة، فسأشاركك في محصول الذّرة التي سأزرعها كما نصحتني. فما رأيك؟"

- نجمع السّمسم حبّة حبّة! الطّيور نفسها لا تستطيع أن تفعل ذلك. هذا مستحيل.

السؤال الصّعب

منذ ذلك اليوم، تأتي مواسم الزراعة وتذهب. وكلّما طلبَ منّي أحد أن أزرع شيئاً مختلفاً، زرعتُ ذلك الأنسبَ لأرضي، وما كنتُ أرى أنّ أهل القرية، والقرى المجاورة، بحاجة إليه أكثر. أمّا الجمل فكان أسعد الجمال؛ لأنّه كان يأكل في كلّ عام شيئاً لذيذاً مختلفاً عن السنّة السابّقة.

\*\*\*

ذات يوم قالت لي جارتِي العجوز: "لماذا لا تتزوَّج يا "عليّ"؟ فأنت فتى لطيفٌ وصاحبُ الأرض العالِيّة، وليس من الصّعب أن تجدَ فتاة طيبة تقبلُ الزّواج منك".

ما قالتهُ كان بالنّسبة إليّ مفاجئاً. إذ ذكرني بأهمّ شيءٍ نسيتهُ تماماً، وهو أنّي لم أُولد بعد.

قلت لها: "بل إنّ عليّ أولاً أن أبحث عن امرأة ترضى أن تكون أمّي، ورجلاً يقبل أن يكون أبي".

لم تفهم المرأة العجوز ذلك، بل أحسستُ بأنّها تقول لنفسها: لقد أصبح مجنوناً هذا الفتى العاقلُ الوسيم.

ذلك الصّباح كان أهمّ صباح؛ كان العتبة التي عليّ أن أجتازها للبدء برحلة البحث عن أبوين لي، فمن دونهما لا أستطيع أن أكتمل.

أكثر من فرح

## الخيار الصّعب

تتهّدت أمّنا، فخلنا أنها ستتوقّف عند هذا الحدّ من الحكاية. لم نقاتعها خوفاً من أن تتوقّف فعلا. التفتت إلينا فرأت عيوننا وقد أصبحت بحجم آذاننا، فواصلت: قال جدّكم:

العثور على أبوين كان أصعب بكثير من اختيار البذور التي أزرعها في الأرض العالية. فإذا كانت هناك سبعة أو عشرة أصناف من الممكن أن تنبت في تلك الأرض بصورة جيّدة دون أن أضاعف الثقل على الجمّل- فإنّ زراعة التفاح، العنب، الزيتون، المشمش، البرتقال، كانت غير ملائمة، لا للنخلة ولا للجمّل.

فكرت: اختيار أمّ هو مهمّتي الأولى. كنت حريصاً على اختيارها أوّلاً لأسباب كثيرة، ثمّ اختيار أب بعد ذلك. فالأب والأمّ في الحقيقة فريدان، مثل الأرض العالية، لكنني بالتأكيد لم أكن قادراً على التّحكّم في أمر غامض ومُستقبليّ كهذا؛ فقد أعرّ على الأب أوّلاً، ثمّ الأمّ، أو ... من يعرف؟

## وجوه... وجوه

لم أستطع النوم في تلك الليلة التي لن أنساها ما حييت؛ ليلة يوم جميل من أيام ربيع عام 1900. بقيت أفكر في أمي: من ستكون؟ وأبي، من سيكون؟ استعرضت وجوه فتيات القرية ووجوه شبابها؛ كان هناك من أحببت أن يكونا أبي وأمّي، ولكن لكل فتاة حكايتها. فهذه مخطوبة منذ أن ولدت لابن عمّها، وتلك يريد لها ابن خالها، وتلك عصبية بعض الشيء تنور لأبسط سبب، وتلك كسولة، وتلك جميلة لا يجرؤ على الاقتراب منها أحد، وتلك يخافها الجميع لأنها قوية؛ والعيب بالطبع ليس فيها، بل العيب في جبن الجبان الذي يخاف أن يكون الآخرون - أو الأخريات - أقوىاء، وتلك طيبة جدًا؛ ولم يكن هذا عيبها أيضًا، فالطيبة شيء جميل وإنساني، وتلك أقسمت ألا تتزوج لأن أهلها رفضوا زواجها ممن كانت تحبه.

نهضت باكراً كعادتي. كان الجمل في باحة منزلي، والنخلة والأرض العالية، وجارتي العجوز التي تحبني أكثر من أهل القرية مجتمعين.

سألته:

"هل فكرت في ما قلته لك؟"

- فكرت كثيرًا. ولكنني أرى أن اختيار فتاة من قريتنا أمرٌ صعب.

- ليس صعبًا، قل لي أي واحدة تريد وسأذهب إلى أهلها الآن.

لم تكن تعرف أن الأمر أصعب مما تتصور. ولو عدت وقلت لها إنني فعلاً أريد أن أجد أمًا وأبًا قبل أن أتزوج، لصرخت:

"هل جئنت؟"

لكنني لم أخبرها، فلم تقل لي هذا.

رفعت يديها إلى السماء، وقالت:

"الله يسهّل عليك، ويرزقك بابنة الحلال. فلطالما تمنّيت أن يكون لي ابنٌ مثلك، ولو كان،  
لما كان أفضل منك حتّى لو ولدته من عينيّ".

ما قالته أثر فيّ كثيرًا، فدائمًا أحسست أنّها مثل أمّ لي، ولكن كان من الصّعب عليّ أن  
أختارها أمًّا؛ لأنّها في الثمانين من عمرها، ولا تستطيع أن تحمل بي وتلدني، حتّى لو عثرتُ لها  
على أفضل زوج- أعني: أب- في الدّنيا.

فكرتُ في الجمل والنّخلة والأرض العالية، فوجدتُ أنّه من الصّعب أخذهما معي في الرّحلة.  
وهكذا، طلبتُ من جارتني أن تعتني بهما.

في صباح ذلك اليوم المُشرق، حين خرجتُ، وجدتُ الجمل واقفًا، وسمعتُه يتحدّث إليّ للمرّة  
الأولى بصوته الأقرب لصوت طاحونة قمح:

"هل ستذهب للبحث عن أمّ وأب وتتركنا هنا؟ كيف خطرتُ لك فكرة كهذه؟ كنا نعتقد أنّك لا  
تستطيع العيش يومًا واحدًا بعيدًا عنّا، كما لا نستطيع نحن العيش بعيدًا عنك، وإذا بك تتسلّل، تريد أن  
تتركنا وراءك".

ورفعتُ رأسي حين سمعتُ صوتًا غريبًا يأتي من الأعلى. كانت النّخلة تقول كلامًا لم أستطع  
تمييز حروفه بسبب ارتفاعها، فخشيتُ أن تلاحظ أنّني لا أستطيع سماعها، فتنحني نحو أذني فتسقط  
الأرض، وينكسر جذع النّخلة.

اعتذرتُ لهما، وكم أفرحني أنّهما كانا رائعين حين قبّلا الاعتذار بسرور.

## أحببتُ فلسطين

كلّ مكان كُنّا نصل إليه كان يتحوّل إلى عُرسٍ؛ قرية أو مدينة. وعندما عَلِمَ النّاسُ برحلتنا، صاروا ينتظرون وصولنا، بل كان بعضهم يخرج للفائنا قبل أن نصل، وهم الذين كان من السّهّل عليهم رؤيتنا من بعيد.

صعدنا جبالا وهبطنا وديانا، وسرنا في سهول بين حقول القمح وبيارات البرتقال واللّيمون وكروم الزّيتون والعنب.

أحببتُ فلسطين كثيرًا، كانت جميلة جدًّا.

وصلنا إلى نهر الأردن، وصعدنا إلى بحيرة طبريّة، وتجوّلنا في سهول الجليل، وسرنا مع البحر، قرب الشّاطئ. مررنا بعكا وحيفا ويافا، ثمّ ابتعدنا عن الشّاطئ وذهبنا إلى اللد والرّملة، وعُدنا إلى الشّاطئ فزُرنا غزّة، وعبرنا صحراء النّقب، ثمّ ذهبنا إلى الخليل والقدس وبيت لحم وأريحا، وصعدنا شمالًا إلى رام الله ونابلس وطولكرم وجنين.

كانت أفضل وأجمل رحلة يمكن أن يقوم بها إنسان -وُلِدَ أو لم يولّد بعد- لكنّها بالطّبع لم تكن رحلة سهلة.

## خوف النخلة

لم تكن رحلة سهلة مع جمل يحمل نخلة وأرضاً عالية، وأنا فوق تلك الأرض. لم تكن رحلة سهلة مع نخلة تحملنا، باستثناء الجمل، نخلة ظلت تُخبئ خوفها من أن يتعثّر الجمل فينكسر جذعها، وتقع الأرض العالية بما عليها من زرع.

كنتُ أغنيّ كلما غادرنا قرية، لأنني كنت على يقين من أنّ جملاً ونخلة وأرضاً كلُّ ما فيهم فريد، كانوا يحبّون الغناء مثل كلِّ أولئك الذي يخرجون في رحلات طويلة.

حين كنتُ أغنيّ للجمل أحسست بأنه سيبدأ بالرقص، وصرتُ أخاف من هذا، بعد أول مرّة غنّيت له فيها:

الله معك يا جملُ

دربي بعيد كثير

والنخلة فوقك بُرج

والأرض بحر كبير

خذنا لسهل وجبلُ

خذنا للمحبّين

نغفي على كتفهم

يكفي... انتظرنا سنين

أحسستُ بالأرض فوقني تتراقص وتميل، والجمل يُغنيّ معي مسروراً لأنّ اسمه وردَ في الأغنية؛ على ما يبدو. وأكاد أقول إنني سمعت النخلة تستغيث، أنا الذي لم أنتبه إلى أنّنا نسير على

حافة عالية لتلال لو كانت أكثر ارتفاعاً بقليل لأصبحت جبلاً.

## وصول الصديقة

بعد أيام من انطلاقنا، فوجئتُ ذات صباح بالحمامة البيضاء تحطُّ قريباً من باب خيمتي. لم تقل شيئاً كما اعتادت أن تفعل. بدتُ مسرورةً وهادئةً على نحو جميل، وكأنّها لم تعرف الهموم في حياتها. لم أتحدّث إليها، بل تركتها تتأمّل ما حولها بصفاء وعينين راضيتين عما تريان.

بدأتُ العمل بعيداً عنها، لكنني كنتُ ألقى نظرة نحوها بين حين وحين للاطمئنان عليها لا أكثر.

قبل الظهيرة بقليل، لاحظتُ أنّ طيوراً أخرى بدأتُ تهبط إلى جوارها، تراقبني بصمتٍ، وتتبادل نظرات ذات معنى في ما بينها.

تناولتُ طعام غدائي، وفكرتُ أن أحمل إليها ما يمكن أن تأكله. خشيتُ أن تطير، لكنني تجرأتُ وتقدّمتُ نحوها حاملاً ما يمكن أن تحبّه كغذاء لها. أغرب ما حدث أنّها لم تخف مني، بل بقيت مكانها تنظر إليّ بمودة. وقبل أن أصل إليها، رأيتها تهزُّ رؤوسها، كما لو أنّها تقول لي إنّها ليست جائعة، وتشكرني.

في تلك اللحظة، ولسبب لا أعرفه، بتُّ على يقين من أنّ صديقات جديرات انضممن للرحلة، وهذا ما حدث.

\*\*\*

ما إن هبط المساء حتّى تبين لي أنّ لا أحدَ منها غادر المكان. وعند ذلك، أدركتُ أنّني لم أكن متوهماً. وعندما أغمضت عينيّ لأنام، كنتُ أسمعها تتحدّث بسعادة، بل ويمكنني القول إنّها كانت تضحك. ولو قال لي أحدٌ من قبل إنّ الطيور تضحك أيضاً، إضافة إلى غنائها، لما كنتُ صدّقته

بالتأكيد. ولن تمرّ أيام كثيرة قبل أن أدرك أنني لم أعد أحظى بصديقة واحدة، بل بمجموعة كبيرة من الصديقات ممن يغمرن بجمال قصصهنّ ليلاليّ كلّها، ويضنّنها بأحاديثهنّ الممتعة...

## أشتري وأبيع

... ولأنَّ الرّحلة طالَت، فقد كنتُ أزرعُ وأحصدُ وأشتري وأبيع؛ دون أن تَعْفَلَ عيناَي البحتَ عن أُمِّي.

كان النَّاسُ يشترون كثيرًا مِنِّي، ومحصولي يُباع بسرعة شديدة؛ أوَّلًا لِأَنَّني كنتُ أعتني به جيّدًا، وثانيًا لِأنَّ النَّاسَ اعتبروه محصولًا عجيبًا، من أرض عجيبة، فوق نخلة عجيبة، يحملها جملٌ عجيب.

بعض النَّاس كانوا يسألونني الأسئلة القديمة:

"ماذا زرعَتَ قطعةَ الأرضِ العاليةِ تلكَ؟"

- سيمسِمًا.

ووصلَ الأمرُ بأحدهم أن سألني: "لماذا لا تزرعها نخيلًا، فتكون لك قطعة كبيرة جدًّا من الأرض فوقها، أو قطع كثيرة أخرى؟"

طرتُ بخيالي بعيدًا، وقلتُ لِنفسي: "لو أنّ القنّاعةَ نباتٌ يُزرَعُ لزرعُها، ووزَّعتُ ثمارها على النَّاسِ مجّانًا".

قال لي: "أراك صمتَ"

فأجبتُه: "سأزرعُها قنّاعةً".

فهَمَني، وصمتَ هو هذه المرّة. فسألني عجوز فقد أسنانهُ كلَّها:

"ولماذا لا تزرعُها فولًا يا ولدي؟"

- في موسم مضى فعلتُ ذلك.

وهكذا كانوا يصمتون. وقد تبين لي أنّ أفضل جواب دائماً هو أن أخبر الذي يُريدني أن أزرعها بشيء يريده، أن أقول له إنني زرعتها بما ينصحي به في موسم فانت. ولم أكن أكذب عليهم؛ لأنني زرعتُ فعلاً كل ما كانوا يشيرون عليّ أن أزرعه. وفي حالات كثيرة، كنتُ أريد أن أختصر هذا النوع من الحديث، فأودّعهم، كي لا أنسى أن هذه الرحلة -أولاً وأخيراً- هي رحلة البحث عن أمي وأبي.

في بعض المواسم كنتُ لا أزرع تلك الأرض. لماذا؟ لأنني كنتُ أتركها تستريح. هذا مهمٌ لها كي تصبح أخصب، ومهمٌ للنخلة والجمل والأرض العالية أيضاً؛ كي يصبح الحمل أخف، وحركتنا أسرع.

... ودائماً كنتُ أراقب من فوق أرضي العالية، باحثاً عن تلك الفتاة التي ستكون أمي، وكلّما رأيتُ واحدة يمكن أن تكون، كنتُ أهبط عن النخلة بسرعة، وأذهب لأقرب منها، وأتفحصها عن قُرب.

كانت هناك فتياتٌ سُمُر، بيضٌ، حنطيات، فتياتٌ بشعر كستنائي أو أسود أو أحمر أو مُشرقٍ كالشمس. وفي الحقيقة، كنتُ أرى الكثيرات منهنّ جميلات، وخفيفات الظلّ. ولو كنتُ أنا من سيتزوّج لاخترتُ واحدةً منهنّ بسهولة. لكنّ مشكلتي أنّ أبي هو الذي سيتزوّج، وعليّ ألا أُجبره على الزواج من فتاة لا يحبّها؛ لأنني في النهاية من سيدفع الثمن. فإذا كانا على غير وفاق سنتشبّ بينهما الخلافات، وأكون الخاسر الأكبر، ولن يُنجبا ذلك الطفل الذي هو أنا، فأضطرُّ إلى البحث عن غيرهما من جديد، ولا يعلم أحدٌ كم سأحتاج من سنواتٍ أخرى لأنجح.

لم يكن الأمر سهلاً عليّ. فلو كنتُ أعرف أبي، لعرفتُ من يمكن أن تُعجبه، أو لا تعجبه، ولكنني لا أعرفه أبداً، ولا أعرف أيضاً من سيعجبها لو اخترتها أولاً.

كنتُ في متاهةٍ بينهما.

في الحقيقة، إنني كنتُ أساعد نفسي أيضاً بالبحث عن فتاة جيّدة؛ لأنني إذا أحسنتُ اختيارها، فهي ستساعدني مرتين: أن تكون أمي، وأن تختار لي أفضل أب أريد، دون أن تدري أنّها تفعل ذلك.

## صديق جديد

عدنا وتوجَّهنا إلى الجنوب مرّة أخرى.

في سوق غزة، سمعتُ غناء طائر الشمس الفلسطينيّ<sup>2</sup>، كانت أعذب مرّة أسمعه فيها يُغني.

يمكنني القول إنني أعرف الطيور من غنائها، وأنا مُغمض العينين.

أول ما فعلته وأنا فوق أرضي العالية أعمل بنشاط بسبب النّسمات الرّقيقة فوقها- أن نظرتُ إلى الأعلى متوقِّعًا زائرًا؛ فكثير من الطيور، ومعها دائمًا تلك الحمامة البيضاء، تزورني بين حين وحين، وتتخلّق حولي، وتحكي لي حكايات عما رآته في العالم أثناء رحلاتها.

لم أجد طائر الشمس الفلسطينيّ في الجوّ، وكان من السّهّل عليّ أن أراه، ربّما لأنّه جميل للغاية، مع أنّه صغير للغاية.

كلّما كنّا نتقدّم أكثر داخل السّوق، كنتُ أسمعه بوضوح أكبر. وفاجأني الجمل بأن راح يعدو هو الآخر نحو الصّوت. ونظرتُ إلى سَعف النّخلة فوجدته يتحرّك على نحو غريب، كأنّه قلبٌ ينبض.

عند ذلك أدركتُ أنّ أمرًا غريبًا يحدث.

لم يطل الوقت، توقّف الجمل، فنظرتُ تحتي. كان السّوق كلّهُ في ظلّ الأرض العالية. نزلتُ، فراح النّاس يشكرونني لأنني أوقفتُ جملي في منتصف السّوق. كانت الحرارةُ مرتفعةً على الأرض في ذلك اليوم، والبحرُ في البعيد نائمًا، لا هواء يهبُّ فيوقظُ أمواجهُ.

حين هدأ النّاس، وبخاصة أولئك الذين لم يسمعوا بأمر جملي ونخلتي وأرضي العالية، وفوجئوا بها، استطعتُ أن أسمع ثانية غناء طائر الشمس الفلسطينيّ الذي أستطيع القول إنّه كان حزينًا للغاية.

تركْتُ أسئلةَ النَّاسِ تركضُ ورأني، وذهبتُ إلى حيثَ مَصَدَرَ الصَّوتِ.

كما توقَّعت، كان طائرُ الشَّمسِ. حينَ رأني فوجئ، وتوقَّفَ عن الغناءِ للحظاتٍ، ونظرَ إلى وجهي. وعندها، رأيتُ لأوَّلَ مرَّةٍ في حياتي دمعَتينِ تسقطانِ من عيني طائرَ.

## الثمن المرتفع

"أطلب ما تريد مقابل هذا الطائر، وسأعطيك". قلتُ للرجل الذي وضعه في قفص مُزخرف.

نظر الرجل إليّ، وسألني: "أنتَ صاحبُ الأرضِ العالية، أليسَ كذلك؟"

- صحيح.

- هو لك، إذا استطعتَ أن تُضحّي بما لم أستطع التّضحية به من أجله.

- وكم تريد ثمنًا له؟

- لا ثمن لطائر جميل مثله، إنّه أعلى من كلّ مال.

- حيرتني يا رجل، اختر ما تريد وأنا مستعدّ لتلبية طلبك.

- أن تحبّه كما تحبّ نفسك، أن تحبّه أكثر ممّا أحببتهُ أنا.

- وكيف أعرف حجم محبّتك له كي أحبه أكثر من محبّتك له؟!

- أحببتهُ إلى ذلك الحدّ الذي لا أحتمل فيه فراقه، ومع ذلك فإنني أفارقه.

- ولماذا تبيعه إذا؟

- لا أبيعُه، بل أحرّره من حبّي له. فحين رأيتُ أنّك أحببتهُ إلى هذا الحدّ، فإنني أحببتُ حبّك

له. هو لك.

وقبل أن أقول أيّ كلمة، استدار الرجل مبتعدًا، تاركًا طائر الشمس الفلسطينيّ ينظر إليّ،

وهو غير عارف: هل عليه أن يُغني غناء فرّح أم غناء حزن؟

## حبّ

عدتُ إلى جملي ونخلتي وأرضي العالية، فرأيتُ أنّ كثيراً من الناس قد تجمّعوا في الظلّ. منذ زمن طويل لم أعش يوماً حارّاً كهذا. أمّا الجميل في الأمر، فهو تسابق الناس لإطعام جملي، وكأنّهم يشكرونه على الظلّ الذي قدّمه لهم. وأحسستُ أنّهم لو استطاعوا سقاية أرضي العالية لفعّلوا، فأحدّم قام بسكب الماء على أسفل جذع النّخلة؛ لم يسكب ماء كثيراً، لأنّه كما أخبرني لا يعرف الطريقة التي أسقي أنا فيها نخلةً نبتت في خرّج جمّل.

شكرته، وأخبرته أنّي أفعل ما فعل، أي أسقيها قليلاً قليلاً، لأنّ النّخلة لا تشرب ماء كثيراً. وهنا خطر ببالي شيء لم ألحظّه من قبل؛ وهو أنّ النّخلة تشبه الجمل في ذلك، وأنّها قادرة على احتمال العطش لأنّها تحبّ العيش في الصّحراء والمناطق الحارّة. فإذا كان الجمل سفينة الصّحراء، فيمكنني القول إنّ النّخلة صارية هذه السفينة.

هذه الفكرة التي خطرت لي أنجبت فكرةً أخرى مفاجئة، وهي أنّي فعلاً أبحر فوق سفينة هي الجمّل، بصارٍ هو النّخلة. وفكرت قليلاً، وهمستُ لنفسِي: "وأرضي العالية هي الشّراع".

كيف لم أنتبه إلى هذا من قبل؟

لو كانت بذرة تفاح تلك التي سقطت في الخرج لماتت، أو بذرة عنب. ثمّ إنّ أشجاراً كهذه ليس لها ارتفاع جذع النّخلة وقوّته. وأشكُّ كثيراً أنّ تلك الأشجار تستطيع أن تحمل قطعة أرض كبيرة مثل التي لديّ.

شكرتُ الناس على لطفهم، فهذا أقلُّ ما يمكن أن أفعله. منحناهم ظلّاً، فمنحونا ماءً ولطفاً ورعاية... وطائر الشمس.

\*\*\*

بمجرد أن بدأت بصعود النخلة، والقفص معلقٌ بحبل في رقبتني وكتفي اليمنى، لاحظتُ أنَّ الجمل كان ينظر إليَّ بفرح، والنخلة تتمايل بهدوء، وسعفاها يصفق بفرح، وأنَّ الطائر كان فرحًا. لم أستغرب ذلك، فهو منذ زمن طويل لم ير الأرض من ارتفاع كهذا. كان فرحًا كما لو أنه يطير. ولم أستغرب فرح الجمل والنخلة، وربما الأرض العالية؛ لأنني كنت فرحًا، وقد قيل إنَّ البشر الفرحين يرون كلَّ شيء مُفرحًا فرحًا.

وضعتُ القفص على الأرض العالية، وأنا أتساءل: كم سنة أمضاها في القفص؟ كنتُ سمعتُ أنَّ عُمر هذا الطائر يتراوح ما بين ثلاث سنوات وتسع سنوات. كان من الصعب عليَّ أن أعرف كم عمره حقًا. وتساءلت: هل الطيور الأخرى تعرف، أم أنَّ عليَّ أن أسأل طائر الشمس نفسه عن هذا؟

\*\*\*

سرتُ باتجاه خيمتي الصغيرة لأضع بعض الأشياء التي اشتريتها من السوق: خبزًا وجبنًا وزعترًا وقليلًا من زيت الزيتون؛ وهذا طعام بسيط أحبّه كثيرًا، وبخاصة في الصباح.

لكنني قبل أن أصل إلى الخيمة، توقفتُ، فقد تذكرتُ ما قاله لي صاحب العصفور عن مدى حبّه لهذا الطائر.

- وكم تريد ثمنًا له؟

- أن تحبّه كما تحبّ نفسك، أن تحبّه أكثر مما أحببته.

فقلت في نفسي: "وكيف يمكن أن أحبّه أكثر مما أحبّه صاحبه؟"

لم تكن الإجابة صعبةً عليّ.

## مُدُنٌ كَثِيرَةٌ

كان الجملُ قد بدأ بالمسير نحو البحر، كما لو أنه يعرف ما أفكرُ فيه. فرغم أنني نسيْتُ السببَ الذي جعلني آتي إلى هنا بسبب انشغالي بطائر الشمس- إلا أنَّ الجملَ لم ينسَ ذلك. حين أقول إنَّ الجملَ لم ينسَ، سيظنُّ البعض أنني جننتُ. ولكنني على ثقة من أن ما نفكرُ فيه من كائنات وأشياء يفكرُ فيها.

كنا قد زُرنا مُدُنًا كثيرة، لكننا لم نوقِّق في العثور على أبٍ مناسب وأُمٍ مناسبة لي.

\*\*\*

لم يكن قد خطر ببالي في أيِّ يوم من الأيام أن أفنتي عصفورًا، لم أفكرُ طوال حياتي بوضع عصفور في قفص، إذ لماذا عليَّ أن أفعل هذا؟ ألكي يُعني لي؟ كلُّ الطيور تُعني لي، بل وتأتي إليَّ بقصص جميلة من كلِّ مكان، وهي تتحلَّق حولي، وتُمضي معي الليلَ كلَّه. وحين أنام، تضع رؤوسها تحت أجنحتها وتنام. وفي الصِّباح أستيقظ على غنائها وهي مُحلِّقة في السماء. وعندما تتأكَّد من أنني صحوْتُ، تبتعد.

لكن رغم هذا، أظنُّ أن لكلِّ إنسان طائرًا في هذا الوجود. وطائر الشمس- الطائر الذي بكى أمامي دون أن يخجل من دموعه- كان طائري الخاصِّ؛ إذ طالما فكُرت: لماذا يخجل النَّاس من دموعهم، ولا يخجلون من ابتساماتهم؟ بعضهم يخجل من ابتسامته؛ لماذا يفعلون ذلك مع أنَّ المسافة بين الدِّمعة والابتسامة قريبة جدًّا؟ ولو كانت الدِّمعة تسقط من القدم والابتسامة تتفتِّح على الشفتين لقلتُ إنَّها مسافة كبيرة فعلاً، لكنها ليست كذلك.

وعادت كلمات صاحب العصفور تتردَّد في أذنيَّ أعلى وأعلى:

- وكم تريدُ ثمنًا له؟

- أن تحبّه كما تحبّ نفسك، أن تحبّه أكثر ممّا أحببته .

ولم يكن صعباً عليّ -كما قلتُ- أن أعرف كيف أُحبه أكثر من صاحبه. فطائر الشمس فهمَ هذا حين رأني أبتعد به؛ إذ راح يتطاير بين جوانب القفص، كما لو أنّه يرقص ويغني في الوقت نفسه، مع أنّه كان صامتاً.

انحنيْتُ، وكان عليّ أن أفعل شيئاً بسيطاً جدّاً، ولكنّه أروع شيء يُمكن أن أفعله: فتحتُ بابَ القفص.

## قوس قزح

صامتًا وقف العصفور على عود الخشب الذي كان في منتصف القفص، على وشك أن يبكي مرّة أخرى، يتأملني وكأنني الفضاء. (هذا ما أحسستُ به).

أظنني لن أستطيع احتمال بكاء عصفور مرتين في يوم واحد.

انحنيتُ باحترام له، كما يمكن أن أنحني احترامًا لأُمِّي وأبي اللذين لم ألتق بهما بعد، وأشرتُ له بيدي التي بسطتها أن يخرج.

أخذ نفسًا عميقًا، كأنه يتنفس الهواء لأول مرّة في حياته. وبقفزة واحدة، دون أن يكون مضطرًا إلى تحريك جناحيه، وقفَ على عتبة بوابة القفص. أغمض عينيه كأنه يتذوقُ الهواء، ورأيتُ صدره الصّغير يعلو ويهبط. كان مثل قلبي تمامًا في تلك اللحظة. قفزَ فوق راحتي الممدودة له، لم يكن فيها قمح يلتقطه بمنقاره الصّغير، ولا أظنه يأكل القمح أصلًا؛ لأنّ غذاءه الأول رحيق الزّهور، هذا الطائر الذي كاد أن يكون نحلة، كان في يدي أجمل ما يحبه: حرّيته. رفّ بجناحيه الملونين وطار، فانعكستُ أشعة الشّمس على ريشه، فكان أشبه بقوس قزح صغير.

## الجوع

اختفى طائر الشّمس، اختفى تمامًا، وأصبحتُ على يقين من أنّ جوعه للحريّة لن يسمح له بالعودة ثانية إليّ، ليشاركني سهراتي مع الطّيور وأحاديثها حول المدن التي زارتها، والحكايات التي سمعتها. كان يخيل إليّ أنّ النّحلة تستمع إليّ أحاديثنا؛ إذ كنتُ ألاحظ أنّ سعفها يميل باتّجاهنا في كلّ مرّة نجتّمع فيها؛ مثلما يفعل عجوز يعاني من ضعف السّمع، يُمسكُ بأذنه ويوجّهها نحو من يكلمه ليسمع بصورة أفضل، أو أن يُغيّر مكانه ويقترّب من المتحدّث، أو يطلب من المتحدّث أن يقترّب منه أو يرفع صوته.

كانت نخلة خجولة رغم ذلك، نادرًا ما تتحدّث، لكنّها كانت شجاعة، حين لا يعجبها شيء  
تعترض بقوة.

بالتأكيد، لم تكن نخلتي كبيرة السنّ، ولكنني كنت أعتقد أنّ النخلة ترى أكثر مما تسمع،  
وكذلك الجمل ربّما؛ فهما دائما يحدّقان في الأفق، ونادرًا ما يسمعان صوتًا في هدوء الصحراء التي  
خلقت من أجلهما، أو ربّما خُلقا من أجلها، ولذا يضعف سمعُهما، كالبحارة الذين يستخدمون أيديهم  
في التّجذيف فتقوى، وتضعف أقدامهم. أقول ربّما، لأنني لم أستطع أن أسألها سؤالًا مُحرّجًا كهذا،  
فهما لا يتحدّثان عادة، وإن كنت أحسّ بما يقوله صمّتهما لي، كما يحسّان بما أقوله لهما حتّى لو كنتُ  
صامتًا. لكنّ الطيور كانت غير ذلك؛ فكلّ يوم أسمع منها قصصًا جديدة، وكلّما رويتُ لها قصّة قالت  
إنّها تعرفها. وأحيانًا أعرف أنّها تعرفها، ولكنّها لا تعترض. لكنّ القصّة الدائمة التي كانت تعيشها،  
وتنتظر أن تعرف نهايتها هي قصّتي؛ قصّة الفتى الذي يبحث عن أبوين لينجباها.

## صديق آخر

من بين أطرف الطيور التي عرفتُها، ومن أجملها، كان ببغاء صحوّت ذات يوم في خيمتي قرب شاطئ "حيفا"، فوجدته جالساً فوق صدري.

للهولة الأولى ارتبكتُ. فلم يحدث أن دخل طائرٌ خيمتي من قبل؛ لأنّ الطيور - كما قالت لي أكثر من مرّة - لا تحبُّ الخيام، ولا تحبُّ البيوت. قد تكتفي بأن تستريح على حافة نافذة أو عتبة باب، لكنّها تعتبر البيوت مصائد لها؛ من يدخلها من الصعب أن يخرج منها، وليس هناك دليل على ذلك أكثر من الإنسان الذي يبني البيوت، ويزيد بأن يضع سقوفاً لها تحجب عنه السماء، ثم يبني جدراناً حول البيت. ومع مرور الزمن، يتحوّل البيت إلى قفص له. ولذا، فإنّه أكثر كائن يغار من الطيور، وكلّ ما يفكر فيه بشأنها هو الإمساك بها ليضعها في قفص. هذا الإنسان - كما تقول الطيور - يتقن أحياناً وهو يزخرف الأقفاص؛ كأنّ العصفور السجين يمكن أن يكون سعيداً في قفص جميل، بل إن بعض الناس يصنعون الأقفاص على شكل البيوت الأنيقة الجميلة، بيوتهم، وقد تساءل شحور ذات يوم: "أليس هذا غريباً، ويستحق التأمل؟" فأضاف طائر الحسون: "لهذا نبني أعشاشنا من القش، وما إن ينتهي احتضاننا لفرأخنا فيها، حتّى نتركها للريح تبعثرها في كل اتجاه".



قال لي الببغاء الواقف فوق صدري، وهو يحكُّ رأسه مُستخدمًا رجله اليمنى: "تأخّرت في النوم. كنتُ أتوقّع أن أجدك على طرف الأرض العالية في استقبالني. ولكنني أعذرك لأنك لا تعرف من أنا".

- سامحني، فهذه هي المرّة الأولى التي أراك فيها.

- ها أنت تسخر مني، وتقول إنك لا تعرفني أيضاً، ألم تسمع بي؟

- لا أذكر أنني سخرتُ من أيّ كائن من قبّل، فكيف إذا كان هذا الكائن طائراً ويملك

جناحين، ولساناً يتحدّث كلّ اللغات؟

- شكرًا لك.

- ولكنك تأخرت أيضًا. فلو أنك وصلت قبل نصف ساعة لقدمناك إلى مجموعة الطيور التي تُمضي الليل كله معي.

- لا عليك. لقد رأيتها تحوم في سماء أرضك العالية، وأظنها لا تزال هناك. (وأشار بمنقاره إلى الأعلى).

- ظنك في محله، فهي لا تغادر إلا حين تراني أخرج من الخيمة.

- بالنسبة إليّ سأمضي معظم يومي معك، لأن كثيرًا من الطيور باتت تزعجني؛ فكثير منها يبلغ في طلباته، كالناس الذين عرفتهم في أماكن كثيرة مررتُ بها. وحينما أفلدُ واحدًا منها -وأعني الطيور- يغضب ويثور، فكل واحد يعتقد أنّ صوته أجمل صوت.

سألت البيغاء: "وما رأيك في صوتك أنت؟ أعني صوتك الحقيقي؟"

- إذا أردت أن أكون صريحا، فهو صوت غير جميل بتاتًا، ولا يوازيه إلا نعيق الغراب، ولكنه في النهاية صوتي، ولا أخجل منه.

طلبتُ منه أن يخرج، وإلا فإن الطيور ستظلُّ تحوم في السماء.

ضرب رأسه برجله اليمنى وهو يقول: "كيف نسيتُ هذا؟!"

خرجنا.

حين رأيتي الطيور المُحلقة تفرقت، كلُّ في اتجاه، وهي تعرف أنّ هناك اتجاها واحدًا سيجمعا مساءً؛ الاتجاه الذي تنتصب فيه خيمتي.

## الضحك لأكثر من سبب

أمضيتُ يوماً جميلاً بصحبةِ الببغاء، وضحكنا كثيراً. أخبرني أنه يحبُّ القصص، لكنه يكره القصص الناقصة. وقد سمعَ قصتي الناقصة -همساً- من طيور كثيرة، وقال لي: "مع أن من الخطأ أن يبوح الإنسان بسرّه للطيور -لأن الطيور تسمع الكثير، ثم يختلط في رأسها الكلام المباح بغير المباح- إلا أنني أعدك بكتمان سرّك"، ودليله على ذلك أنه سيعيش معي إلى أن يرى نهاية قصتي. "لقد جئتُ إلى هنا لأعيش قصّتك معك، وأشهدُ نهايتها التي آمل أن تكون كما تُحبّ". وطمأنني مرّة ثانية إلى أنّ أحداً لن يعرف قصّتي منه، كما عرفها من همسات الطيور.

- وكيف أضمن أنك لن تتحدّث إلى البشر وأنت الوحيد القادر على ذلك؟

- لأنني أفدّر لك كثيراً ما فعلته مع أخي طائر الشمس.

- لا تقل لي إنك سمعت أيضاً همسات الطيور عن إطلاقي سراحه.

- سمعتُ همسات الطيور! لقد أخبرني بنفسه، وهو من أشار عليّ أن آتي إلى هنا إن كنتُ أريد راحة البال والطمأنينة، بعد أن أعطاني عنوانك الذي لحسن الحظّ كان عنواناً واضحاً.

\*\*\*

أحببتُ الببغاء، وتبيّن لي أنّه غير ما يشاع عنه؛ فهو ذكي، ويستطيع أن يتحدّث في موضوعات كثيرة للغاية، ربّما لأنّه واحد من الكائنات التي عاشت قرب البشر، وعرفتهم كما تعرف إخوتها الطيور.

... وهكذا سيكون الببغاء لي وللطيور خير صديق في الليالي التالية.

أعراس وألغاز

## زين الشّباب

- "نعستم؟" سألتنا أمنا، فأجبنا بصوت واحد: لا.

ابتسمت: أكيد؟

فأكدنا لها الأكيد. وعندها واصلتْ وابتسامة بوزن 8 غرامات تضيء شفّتها.

وقال جدّكم:

لم يكن عليّ في أيّ يوم من الأيام أن أنتظر الطيور في المكان نفسه الذي كنتُ صباحًا فيه. كنتُ أتقلّ من قرية إلى مدينة، ومن مدينة إلى قرية، مطمئنًا إلى أنّها ستجدني حيثما كنت.

حين كان الجمل والنخلة يمرّان بالمدن الجميلة التي نزورها، مثل عكا وحيفا وغزة والقدس ونابلس وبيت لحم والخليل وسواها، كنت أرى أذنيّ الجمل تنتصبان، وكذلك سعف النخلة. من خبرتي بهما يمكن أن أقول إنّهما يحاولان أن يسمعا أكثر. أمّا عيونهما فكانت قويّة، بحيث تستطيع رؤية ما تريد ببسر.

في ليالي الأعراس التي سهرنا فيها حتّى الصّباح، كنت ألاحظ أنّهما لا يريدان المغادرة. كانا مثل ولدّين يجبرهما غيابُ الشّمس وأهلّهما على مغادرة الملعب حيث يلهران بفرح.

كنت أحسّ بهما، ولذا أهدق في الأفاق باهتمام كبير باحثًا عن عُرس، مرّة أراه، ومرّة أسمع أغنياته، ولم يكن يلزمني أن أوجّههما نحوه حينما تقترب منه، إذ كانا يمضيان إلى مصدر الصوت، أو تجمّع المحتفلين دون أيّ إشارة مني أو كلمة.

الذهاب إلى الأعراس كان يسعدهما كما قلتُ. لكنّه كان ضروريًا بالنّسبة إليّ، ويسعدني، ويسعد النّاس الذين يرون الزّائرين العجيبين، فتزداد حماسهم غناء ورقصًا، بل يقفز الرّجال في الهواء، كأنّهم تحوّلوا إلى طيور.

كنت أعتقد أنّ فرصة العثور على أب وأمّ لي تكون أكبر في الأعراس، فأعدادُ النَّاسِ الكبيرة تلك، لا يمكن أن أشاهدها في أيّ مكان آخر، أو مناسبة أخرى، باستثناء المآتم بالطّبع، ولكن ليس من المعقول أن أذهب للبحث عن أمّ وأبٍ في مآتم.

توقّفنا عند عرس كبير حقاً، في قرية شهيرة اسمها "الهادية"، كتب عنها أحد أحفادي رواية بعد زمن طويل. كان أكبر عُرْس نراه حتّى ذلك الوقت تحت القمر؛ وكلُّ الأعراس تقريباً كانت تُقام في الليالي المُقَمَّرَة ليسهُلَ على النَّاسِ التَّحرُّك في ساحة العرس، ومن وإلى مكان العرس، فكُنُزٌ يأتون من قرى بعيدة.

كنت مستمتعاً بما أراه، وكان الببغاء يندندن مقطعاً من أغنية شعبية شهيرة، وهو يضرب الأرض برجليه الصّغيرتين كأنّه يرقص:

عريسا زين الشّباب

زين الشّباب عريسا.

راقبته بسعادة، إلى درجة أنّني وجدتُ نفسي أغني معه وأعيد، فوق حافة الأرض العالية، ودون أن أبعد عينيّ عن النَّاسِ، باحثاً عمّن أتمنّى أن أراه، أو أراها.

وما هي إلا دقائق حتّى بدأوا يتجمّعون حولنا وينظرون إليّ حيث أجلس، ويدعونني لمشاركتهم عرسهم.

نزلتُ، إذ لم يكن من اللّطف أن أتركهم طويلاً ينتظرون، فراحوا يحتضنونني.

من بعيد، لمحتُ فتاةً جميلةً حقاً، لا أستطيع أن أصفها إلاّ بأنّها جميلة حقاً. وحين أقول ذلك، فأنا أعني كلّ ما فيها. همستُ لنفسي: "لعلها هي من أبحث عنها".

تقدّم منها رجلٌ مُمسِكٌ منديله، وسحبها إلى وسط الحلقة الكبيرة للراقصين والراقصات، ورقصا كأنهما طائران في الفضاء. فقلتُ في نفسي: "هذا أفضل ما يمكن أن يحدث معي؛ أن أجد أبي وأمّي في مكان واحد، بدل البحث عنهما في مكانين مُتباعدين".

## طلب صعب

كنت أودُّ الذهاب للحديث معهما، لكنَّ شيئاً غير متوقَّع حدث؛ فقد جاء العريس وصافحني، وطلب منِّي أن تكون هديّتي له، في ذلك اليوم السَّعيد من حياته، الصَّعود إلى الأرض العالية.

التفتُ إلى الجمل فرأيتُه يهزُّ رأسه رافضاً، فتأكَّد لي أنه بات يسمع كما يرى. النحلة اهتزَّت بالطَّبع حين اهتزَّ الجمل، لكنني لم أعرف إن كانت توافقه الرّأي أم لا؛ فأذناها بعيدتان عن الأرض كثيراً. أمّا الببغاء فرأيتُه يطير مبتعداً ويحطُّ على شجرة بلوط عالية. الببغاء الذي قال لي: "أنا أفضلُ من يعرف البشر".

اعتذرتُ للعريس؛ أخبرته أنّ الجمل مُتعبٌ، كما أنه منذ طفولته لم يسبق أن رضيَ بأن يصعد أحدٌ غيري إلى ظهره، فما بالك بالصَّعود إلى الأرض العالية فوقه.

كان العريس شابّاً طيباً، حتّى إنني فكَّرتُ أنه ليس لديّ مانع بأن يكون أبي. لكنني أعترف أنّ تفكيري هذا سببه أنني بدأتُ أتعبُ من البحث؛ مع أنّ التعب شيءٌ إنسانيٌّ يصيب الجميع، وهو مرحلة لا بدّ منها قبل استئناف النّشاط.

اقتربتُ منّا امرأةً طويلة تبدو مثل رمح، ولها ملامح سنّنا 3 مريم، عليها السّلام، والدة سيّدنا المسيح، عليه السّلام، طيّبة وجميلة، ووجهها يشعُّ نوراً في ذلك المساء كأنّها قنديل، وقالت لي: "سأكون شاكرةً لك يا ولدي لو سمحت له بتسلُّق النّحلة، والوصول إلى أرضك العالية".

قلبي خفق، خفق بشدّة، حين لفظت كلمة (ولدي)؛ أحسستُ أنني ولدتُ من كلمة، من هذه الكلمة، وتمنّيتُ حقاً لو أنّها أمي.

لم أستطع أن أقول لها: لا. وافقتُ، وأنا لا أعرف كيف وافقتُ، وشعرتُ بأنني نسيتُ رأيي الجمل؛ الجمل الذي هزَّ رأسه رافضاً.

التقتُ إليه، فوجدته مثلي، كان الجمَل يبدو مُستسلِمًا، وكأنَّ مَنْ طلبتُ ذلك الطَّلب هي أمُّه  
أيضًا، ولم أرَ النخلة تهتزّ، كان سَعَفها المتدلّي من تحت الأرض العالية هادئًا.

قلتُ للمرأة: "لا نستطيع أن نرفض لك طلبًا".

فسألنتني:

"من تعني حين تقول: لا نستطيع؟"

فأجبتها:

"أنا والجمَل والنخلة والأرض العالية يا أمي".

ظننتُ أنني أمارحُها، فضحكتُ. أحببتُها أكثر.

الحقيقة، خفق قلبي أكثر لأنني كنتُ أدعوها أمي. وللحقيقة، كانت تلك أجمل كلمة في الكون،  
كلمة تركتُ على لساني ما يشبه طعم العسل، وبقي هذا الطعم في فمي طوال الفترة التي راقبتُ فيها  
العريس وهو يصعد النخلة.

وصلَ إلى ما بعد منتصفها وتوقّف. كلنا أدركنا، وأمّه قبلنا -على ما أعتقد- أنه لن يستطيع  
الوصول إلى الأرض العالية. وسمعناه يقول: "أظنُّ أن هذا يكفي، فالهدية وصلت!". وقالت له أمّه  
بصوت جميل عذب: "أظنُّ ذلك يكفي، لا تتعب نفسك بتسلُّق النخلة أكثر، علينا أن نرى رقصك هنا  
على الأرض".

بسهولة نزل عن النخلة، لأنَّ الهبوط لم يكن صعبًا كالصعود في أيّ يوم؛ إلا إذا كان داخل  
بئر أو هوة سحيقة بالطبع.

ارتفعتِ الأصوات تحييه، وتحيي شجاعته، وتشكرني لسماحي له بالصعود. وكان عليّ أن  
أصافحه وأشدّ على يده، وأقول له: أهنئك على فكرتك بالصعود، إذ لم يسبق أن تجرّأ أحدٌ على طلب  
ما طلبتُ.

وكان ذلك أمرًا حقيقيًا.

فرِح العريس لأننا لم نحرمه من أمنيته، وفرحت أمه، وفرِح الجمل الذي تبادلت وإياه  
نظرات ذات معنى. أما البيّعاء، فعاد بسرعة ووقف على طرف الأرض العالية، وكأنه يقول لي: لقد  
بالغتُ كثيرًا حين أجبرني خوفي على اللّجوء إلى شجرة البلّوط.

## الرقصة

رغم الحرارة التي بثها العرس في أجساد كل من كانوا هناك، إلا أنّها كانت ليلة باردة؛ لذا قبل نهاية السهرة أشعلوا نارًا كبيرة. كانت مشاهدة وجوه الناس في ضوء تلك النار التي تتحرك كالموج جميلة للغاية.

اقترب منّي الرّجل الذي كان يرقص مع تلك المرأة، وشكرني على قدومي إلى العرس، وقال لي إنّ شقيق العريس. سألته عن الفتاة التي رقص معها، فضحك كثيرًا، وناداهما، فاقتربت، ارتبكتُ، فقال لها: "ضيفنا يصفك بأنك الفتاة التي رقصتُ معها". ضحكت المرأة بفرح، وقالت: "فتاة، من أين لي أن أكون شابة، أنا التي أنجبتُ سبعة أطفال".

شقيق العريس قال لي: "إنّها عمّتي، وهي أفضل من يرقص في "الهادية" والقرى التي حولها، ولذا فإنّ فخر أيّ رجل في هذه الأثناء أن تقبل بالرقص معه. ولحسن حظّي، كنتُ أنا ذلك الرّجل المحفوظ هذا المساء".

## مولود ثامن

الحقيقة، لم أعرف ما عليّ أن أفعل، ولعل الأنانية وحدها هي التي جعلتني -دائمًا- أتخيّل أنني سأكون المولود الأول لأبويّ، وليس المولود الثامن، كما لم أعرف إن كان يصحّ ذلك، أعني أن أختار أبًا وأمًا متزوّجين، وأصبح ابنهما.

هل يحقّ لي أن أختار إخوتي؟ أم عليّ القبول بمن ولِدوا قبلي، أخواتٍ وإخوة؟

لم أصل إلى حلّ، فتعبتُ كما يتعب الناس كلّهم من التّفكير أيضًا، وكما يتعبون من العمل، فسألتُ ذلك الشابّ الذي راق لي كآب -الشابّ الذي تبين لي أنّه شقيق العريس- سؤالًا مباشرًا،

وحسنًا أنه لم ينفّر من سؤالي:

- وهل أنت متزوج؟

- بل لديّ خطيبة في مدينة دمشق.

- دمشق؟

- أجل، دمشق، ولبتك تأتي معي فتكون أنت والجمل والنخلة والأرض العالية شهودًا عرسي

هناك.

فكرت: لا أعرف إن كنتُ قادرًا على أن أمضي معه إلى دمشق لأرى خطيبته. فهذه مسافة ستُعَبُّ الجمل والنخلة، ولا أعرف إن كانت ستُعَبُّ الطيور التي تأتي للسهر معي، أم لا. وتذكّرت طائر الشمس الفلسطينيّ، فأحسستُ بشوقٍ إليه، وقلتُ لعله سيكون فرحًا بزيارة دمشق، فهي ممثلة بالياسمين كما سمعتُ، وهو لا يحبّ شيئًا مثلما يحبُّ رحيقَ الأزهار، ودمشق مدينة الياسمين.

- ما لك أصبحتَ مهمومًا، أنا أمزح معك. دعني أعترف أنني لم أجد فتاةً تقبلُ بي حتّى الآن،

أليس كذلك يا أمّي؟

- ليس هذا صحيحًا. فأنت عنيد، وقد كان يمكن أن تكون متزوجًا منذ عامين، لكنك لم تقبل

في اللحظة الأخيرة، بعد أن قدّمت لأبيها كلّ ما طلبه منك.

## المباراة

وصل أهل العُرس وأصدقاؤهم إلى الجزء الأصعب من السهرة: التحدّي.

كانت المباراة الأولى هي شدُّ الحبل: ينقسم الشّباب إلى فريقين، ويبدؤون بشدّ الحبل السّميك. لم تكن مباراة سهلة رغم بساطتها. فكلُّ فريق منهم كان على وشك أن ينتصرَ في لحظة ما، لكنّ الفريق الآخر يستعيد قوّته وينجح في جرّ الفريق الثّاني باتجاه الخطّ الذي رُسم في المنتصف، فيعود الفريق الثّاني ويجرُّ الحبل، ويوصلُ قدم أوّل رجلٍ من المنافسين قرب الخطّ. يصرخ الناسُ مُحذّرين

وَمُتَحَمِّسِينَ. وهكذا... إلى أن استطاع في النهاية- الفريق الذي فيه شقيق العريس والعريس تحقيق الفوز.

زغردت النساء، وقفز الأولاد الصغار بحماسة في الهواء. وكانت الفتيات ينظرن بخجل نظراتٍ غير مباشرة لهذا الشاب أو ذاك، إعجابًا به. ولم يكن يخفى عليّ أن شقيق العريس كان الشاب المثالي الذي حظي بعشرات النظرات.

للحقّ، حتّى أنا الذي لم أشارك في الحفل كنت أخطى بنظرات ذات معنى من صبايا صغيرات جميلات، وكنْتُ أهمس في سرّي:

"ما الذي يمكن أن يحدث لهنّ لو عرفن أنّني لم أُولد بعد؟"

## شبح السيف

وصلوا إلى لعبة السيف.

إلى ظهر مُهر، صعد رجل صغير ذو عيين تشعان ذكاء، له جسد طفل في عامه الثالث عشر، وتجاويد رجل في السبعين من عمره، وصاح:

"والآن... الآن، حان وقت المباراة، فليتقدم الأبطال الشجعان إلى قلب الساحة".

وتقدم شقيق العريس...

لم يكن صعباً أن أتوقع أنه سيفوز. ففي اللحظة التي أمسك فيها السيف ولوَّح به في حركة دائرية، سريعة جداً، عرفنا كلنا ذلك. حيث لم نستطع أن نرى السيف الذي تحول إلى شبح سيف، رغم قوة ضوء النار على الأرض، و سطوع القمر في السماء. منذ تلك اللحظة أدركت أنه الفائز، لكن الشك راودني حين رأيت رجلاً ضخماً يُطلُّ من الجانب الآخر لساحة العرس. كان بارتفاع جملي -ربما- أو يكاد. لسبب ما ارتجف قلبي خوفاً هذه المرة. وحين أشهر سيفه، كان أعظم سيف رأيتُه بين البحرين: بحر حيفا، وبحر الجليل، أي بحيرة طبرية.

تقدم الرجل الضخم فاهتزت الأرض. أمّا ما تأكّدت منه، فهو أنني لا أريد أن يكون هذا الضخم أبي، حتى لو انتصر.

لم أكن بالطبع أعارض أن يكون أبي قوياً؛ فهذا أمرٌ جميل، ولكنني كنت أريد أن يكون رقيقاً أيضاً.

كانت البداية صعبة على شقيق العريس الذي تذكرت أنني لم أسأله عن اسمه، وأنني أوصل تسميته: شقيق العريس، وهذا شيء يفتقر إلى اللياقة. فاقتربتُ من أمّه وسألتها: ما اسم ابنك حامل السيف؟

ضحكتُ وقالتُ وهي تراقب ابنها مُلوِّحًا بالسيف، بوجهها المضيء وملامحها الصافية:  
"خليل".

أعجبني اسمه، فهو يعني بالعربيّة: الصّديق الوفيّ.

الغريب أنّي قبل أن أعرف نتيجة المباراة، اختلستُ نظرة أخرى إلى وجه والدته وتمنّيت  
-هذه المرّة- أن تكون جدّتي.

همستُ لنفسِي: "ها أنت تختار جدّتك قبل أن تختار أباك وأمك. مع أنّ الأمر ليس منطقيًّا؛  
مثل الذي يبني سقفًا للبيت قبل أن يضع له الأساسات ويبني الجدران". لكنني رغم ذلك بتُّ على يقين  
من أنّي يمكن أن أتنازل عن الأب والأمّ من أجل هذه الجدّة. كنت أعرف أنّي تسرّعت، وأنّني مرّة  
أخرى- أبني سقفًا دون أن تكون هناك أساسات وجدران؛ فهي لن تكون جدّتي إن لم أكن ابن ابنها.

## ابتسامة الجدّة

البداية كانت صعبة، فالرجل الضخم كان مسيطرًا على الساحة بسيفه الذي يعلو ككتلة من صخر الصوّان، ويهبط بقوة، ثقيلًا، يتطاير الشرر من حدّه.

خوفي كان يدفعني لأن أنظر إلى جدتي التي ليست جدتي. لم أر في ذلك الوجه إلا المحبة المطمئنة، والسلام الذي يغمره، دون أن تفارق شفيتها ابتسامه عذبة.

تذكرت الجمل والنخلة والأرض العالية والبيغاء -صديقي الجديد- نظرت إلى الأعلى، وخيل إليّ أنها تراقب المباراة بحماسة أكبر من حماستي. حتى إنّ النخلة كانت تتأرجح كالسيف. أمّا الأرض العالية فكانت تحاول ما استطاعت أن تتمسك أكثر برأس النخلة، رغم أنّ ذلك لم يمنعها من أن تبدو سعيدة بما تشاهده.

البيغاء لم يكن هناك، أو لم أستطع رؤيته. قلتُ في نفسي: "أرجو أن يكون لقاءه بالطيور لقاءً طيبًا. فأخّر ما أريده نشوب خلاف في ظلال خيمتي؛ مع أنّي أثق بحكمة الحمامة البيضاء في حلّ أيّ نزاع بينها، كما أثبتت الأيام قبل وصول البيغاء". وتمنّيت لو أنّي كنت فوق أرضي العالية، لأقدمه للطيور. لكنّ ما طمأنني أنّها -لا شكّ- تعرفه أكثر منّي، لأنّه من جنسها، وأنا من جنس آخر.

\*\*\*

نصف ساعة انقضت والمبارزة مستمرة. استطاع "خليل" أن يتفادى برشاقة كلّ ضربة سيف وجّهت إليه، أو هوت عليه. وفي لحظات كثيرة، بدا لي أنّي أشهد مبارزة حقيقية، بل لحظات حاسمة على أرض معركة. لم يبقَ من الجيشين اللذين خاضها سوى رجلين.

ضحكة واحدة أطلقها "خليل" وهو يردّ ضربة قويّة بسيفه وجّهها الرجل الضخم إليه. ذكرّتني أنّ الأمر لعبة لا أكثر. لكنّها لم تكن كذلك تمامًا؛ فهناك من سيفوز، وهناك من سيخسر، ولا

أريد أن أقول: هناك من سينتصر وهناك من سيُهزَم.

بعد قليل، بدأنا نرى الرُّجُل الضَّخْم يتراجع. إذ يبدو أنه ليس من السَّهل على الإنسان أن يحمل جسمًا ضخماً لفترة طويلة، حتَّى لو كان هذا الجسمُ جسمَه.

وبعد أقلَّ من خمس دقائق، دار سيف "خليل" في الهواء، فلم نُعد قادرين على أن نراه نحن والرُّجُل الضَّخْم بالتأكيد- وحين استطعنا رؤية سيفه، كان حدُّه قد استقرَّ مُلامسًا عُنُقَ الرُّجُل الضَّخْم الذي رأيناه يُعلن عن خسارته للمبارزة بتزكِّ سيفه يسقط من يده.

بالغناء انتهت تلك اللَّيلة، وبالرقص... من جديد.

\*\*\*

طلبوا منِّي أن أنام في أحد بيوت القرية بسبب برودة الجوّ، إلَّا أنّني طلبتُ منهم السَّماح لي بالنَّوم في خيمتي في الأرض العالية؛ فذلك يجعلني أتمتّع كثيرًا -من هناك- بشروق الشَّمس.

## في الانتظار

وجدتُ طائر الشمس في انتظاري فوق باب الخيمة. لم يكن رأسه تحت جناحه، ولا يوحى أنه كان تحت جناحه؛ لذا، لم يكن صعباً عليّ أن أعرف أنه لم يستطع النوم لسبب مهمّ. عيناه كانتا تلمعان مثل يراعتين ساطعتين متلاصقتين.

حول الخيمة، كانت الطيور نائمة، وفي وسطها يغفو الببغاء، ويُطلق شخيراً ناعماً، غير مزعج. قلتُ: "لعله تعلم ذلك من الناس".

يبدو أنّ الطيور انتظرتني أكثر ممّا يجب، فتعبتُ ونامتُ.

على أيّ حال، لم يكن في استطاعتي أن أسهر كثيراً بعد ليلة طويلة جميلة كالتي أمضيتها في العرس.

رفّ طائر الشمس بجناحه فرحاً حين رأيته أقترّب منه، فرأيتُ انعكاس ضوء القمر على جناحيه كما لم أره من قبل. كان سعيداً، يعرف ولا شك أنّ إنساناً منحك الحرّية -التي هي أعلى ما في الوجود- لا يمكن أن يلحق بك الضرر.

فاجاني كثيراً حينما رأيته يغادر مكانه ويتّجه نحوي. حطّ على كتفي اليمنى، حكّ خدي بمنقاره الطويل، وكأنه يمنحني قبلة ما قبل النوم، وتأمّلي قليلاً، قبل أن يعود إلى مكانه فوق عمود باب الخيمة، وأنا أتساءل: ما الذي يودّ أن يقوله لي، ولم يقله؟

\*\*\*

تلك الليلة، كانت صورة تلك المرأة التي أحببتُ أن تكون جدّتي حاضرة أكثر من أيّ شيء آخر، وكأنها مطبوعة في عينيّ. وفجأة، تذكرت أنّي لم أر زوجها الذي لا أعرف إن كنتُ سأختاره جدّاً أم لا، رغم معرفتي أنّي إذا اخترتها جدّة فإنّني لن أستطيع أن أختار جدّاً هو ليس زوجها. كأن

أقول لها: "يا جدّتي، عليك أن تتركي زوجك لأنني لا أريده جدًا لي. سأختار لك واحدًا آخر حسب ذوقي". فأنا أعرف أنني لا أستطيع أن أفرض أبي الذي أريدُ على أمي التي أريدُ، فهما من سيتزوجان لا أنا، فكيف إذا تعلّق الأمر بجدّي وجدّتي.

لا أعرف كيف أشرقتِ الشُّمسُ بسرعة. وقد أشرقتُ بالطَّبع على الأرضِ العاليةِ قبل أن تغمرُ بضوئها قرية "الهادية" الجميلة.

\*\*\*

عدم عثوري على أمّ في ذلك العُرس كان يشجّعني على أن أقودَ جملي نحو مكان آخر؛ قرية، أو أطراف مدينة. في المدن لم يكن من السهل أن أتجول فوق جملي في شوارعها وأزقتها، لأنها لا يمكن أن تتسع لمرور جمل ونخلة يحملان قطعة أرض بهذا الحجم.

وقبل أن أجهّز طعام الفُطور، كانت الطّيور التي أمضتْ ليلتها حول الخيمة تتعلّق حولي، وهذا ما لا تفعله الطّيور صباحًا.

في اللّيل، كان يحدث هذا فقط؛ حيث تجلس حولي وتروي قصص رحلاتها، والقصص التي سمعتها من طيور أخرى، أو من أناس كانت على مقربة منهم.

عصفور الشّمس لم يغادر مكانه فوق باب الخيمة. كان ينتظر شروق الشّمس وكأنّه على موعد مع روجه.

أمّا الببغاء فكان يحظى باحترام كبير -كما تبين لي- لأنّ الطّيور كانت تصرُّ على أن يسير أمامها. وللحقّ، كان جميلاً بريشه، ووقورًا بمشيته الواثقة.

راحت الطّيور تستعيد بعض الحكايات التي سمعتها من الببغاء بسعادة كبيرة. فهذه قصّة "الجبل الطائر" التي جرت أحداثها في الصّين، وتلك حكاية "نعامة السُّلطان" التي جرت أحداثها في فلسطين، وحكاية "جرادة وعصفور" من سوريا، وحكاية أخرى من إفريقيا اسمها "المادا يخجل الوطواط من أن يظهر نهارًا؟".

ولأنّ الطيور كانت سعيدة جدًا بتلك القصص التي رواها الببغاء، فقد أحسستُ بأنني أضعتُ ليلة جميلة كان يمكن أن أقضيها معها؛ إلى أن تذكّرتُ أنّه من الصّعب على الإنسان أن يكون في أكثر من مكان في الوقت ذاته، ومن الصّعب عليه أن يحظى بكلّ شيء، إذ إنّ عليه دائمًا أن يختار. لكنني تذكّرتُ أنّ أمامي يومًا طويلًا سأقضيه مع الببغاء، وسأطلب منه أن يروي لي تلك الحكايات مرّة أخرى.

\*\*\*

الطيور لم تكن تطلب شيئًا؛ ماء أو طعامًا. فهي تأتي في نهايات النهار مكتفية بما أكلتُ، وتغادر في الصّباح باحثة عما تأكل؛ مع أنني جرّبتُ أكثر من مرّة أن أعدّ لها عشاء شهيقًا من محصول أرضي. الجلوس معي كان أكثر ما تتمناه -وَأتمناه- بعد أن وجدتُ فيّ صديقًا وفيًا لا يمكن أن يغدر بها وهي نائمة في المكان الذي باتتُ تعتبره أكثر الأماكن أمانًا لها؛ تضع فيه رؤوسها تحت أجنحتها دون أن تخشى أيّ خطر.

أدركتُ: ما دامتُ قد تأخرتُ فإنّ عليّ أن أعدّ طعام الفطور لي ولها. أحسّتُ الطيور بما يدور في رأسي، فاقتربتُ منّي أكثر. التفتتُ إلى طائر الشّمس، كان يطلب منّي أن أجلس بحركة واضحة من رأسه، وبغناء يموج في صدره.

جلستُ.

في البداية، تحدّثتُ الطيور بفوضى، ثمّ صمتتُ وبقي صوت واحد، هو صوت غناء طائر الشّمس.

لم يكن صعبًا عليّ أن أفهم أنّ الطيور لا تريدني أن أغادر المكان. ويبدو أنّ الجمل في الأسفل فهم كلامها أيضًا؛ فبعد أن كان واقفًا ومستعدًّا للرحيل -كما يفعل كلّ صباح- جلس.

نحن لم يسبق لنا أن أمضينا أكثر من ليلة في مكان واحد منذ بداية رحلتنا.

تأمّلتُ الطيور وجهي باحثةً عما يُشير إلى أنني فهمتُ جيّدًا ما قالته. وقبل أن أهزّ رأسي مؤكّدًا لها أنني سأستجيب لطلبها، سمعتُ صوت تلك المرأة التي تمنيتُ أن تكون جدّتي تصيح:

"نحن في انتظارك لتُشاركنا طعام الفطور".

سرتُ إلى طرف الأرض العالية، ونظرتُ إلى الأسفل، فوجدتُ أنّها هي فعلاً. وسرّني أنّي  
استطعتُ تمييز صوتها بتلك السهولة.

نظرتُ إلى الطيور، فوجدتها تحدّق إليّ منتظرة قراري. توجّهت إلى منتصف الأرض  
العالية، إلى رأس النخلة، وبدأت بالنزول والطيور تراقبني. وفي اللحظة التي كان رأسي على وشك  
الاختفاء فيها، رأيتها تطير في الفضاء تاركة الببغاء يتمشّي كرجل وقور يشبكُ يديه خلف ظهره.

كنت عند منتصف جذع النخلة حين رأيتها تحلّق بشكل دائريّ حولي. وقبل أن أصل إلى  
ظهر الجمل، رأيتُ طائر الشمس على بعد ثلاثة أمتار من رأسي يُغني فوق نتوء بقايا سعفةٍ  
قصصتها لأسهل طريق الصعود.

قال بصوتٍ واضح وجميل: "كلنا معك".

"كلنا معك"، ترددت مرّة أخرى في أذني، فتساءلتُ: "لماذا يُعيد كلامه مرّتين؟" وحين  
رأيت الببغاء يرفرفُ ليس بعيداً عنّي ضحكاً.

## المفاجأة

كان الأمر صاعقاً بالنسبة إليّ. لم يكن لـ "جدّتي" -التي لم تكن جدّتي فعلاً- زوج؛ هذا يعني أنّه لن يكون في استطاعتي الحصول على جدّ إذا أصبحت جدّتي.

كنت قد سألتها بلطف؛ مع أنّ أيّ لطف في حالة كهذه لن يكون لطيفاً:

"لم أرَ والدَ بطلنا "خليل".

كانت تلك أبسط صيغةٍ للسؤال، وأكثرها براءة كما أحسستُ.

تتهدّت، وقالت:

"خليل" لم يرَ والدَه قطّ، فقد قُتِلَ في حرب بعيدة عن هنا. لم تكن حربُه، ولم تكن حربنا، بل كانت حربَ من يُريدون أن يخوضوا تلك الحربَ لينتصر أحدُهم على الآخر؛ السادة الكبار. وفي مثل هذه الحروب، لا يُهزَم إلا أولئك الذين أُجبروا على خوضها من الطرفين- لأنّها ليست حربهم".

وصل "خليل"، فخاطبته أمّه: "جوّعتنا، انتظرناك طويلاً".

فاعتذرَ بلطف شديد.

في ضوء النّهار، تحت أشعة شمس ذلك اليوم الجميل، بدا لي هذا "الخليل" أباً مثاليّاً أكثر فأكثر. فالنّهار أكّد لعينيّ ما أحسّه قلبي في اللّيل.

مازحني قائلاً:

"لماذا لم تدعُ أصدقاءك لتناول الطّعام معنا؟"

- أصدقائي! ليس هناك فوق الأرض العالية أحدٌ غيري.

- أعني الطيور. كان مُدهشًا أن أراها تُحلّق حول النخلة وأنت تهبط. لم أرَ شيئًا كهذا في حياتي. لو كانت حمامًا لقلتُ إنّها تفعل هذا مع مَنْ يربّيها، لكنّها طيورٌ من أنواع كثيرة، بريّة". وضحك وهو يضيف: "بل جويّة. طيورك هذه يمكنني القول إنّني لم أرَ بعضها من قبل، كما لم أرَ هذا الاختلاف مُجتمعًا في رفٍّ واحد".

أعجبني كلامه، فقلت وأنا أريد أن أحظى بإعجابه ما استطعتُ، ليقبّلني ابنًا:

"هذه الطيور لحسن حظّي- تزورني وتنام هنا. وفي الصّباح تغادر مثل كلّ الطيور. أظنّ أنّها وجدتُ شيئًا تحبّه، ومكانًا تحبّه، ولذلك لم يعد الاختلاف جزءًا من حياتها".

- لا تقل لي إنّك تعرفها؛ أعني واحدًا واحدًا.

فقلتُ ضاحكًا: "ليس إلى هذا الحدّ. لكنني أستطيع تمييز عدد منها. بعضها يغيب طويلاً. وفي الحقيقة، حين تعود لا أعرف أيها عادّ، هل هم أبناؤها، أم الآباء والأمّهات؟ فهي متشابهة". وأردتُ أن أضحك، إلا أن أمنية واحدة نبتت في قلبي: أن تكون لديّ مرآة في تلك اللّحظة لأنظر إلى وجهي وأعرف كم أشبه هذا الشابّ اللطيف الذي يجلس أمامي.

... رحّتُ أحاول أن أتذكّر وجهي كما لو أنّني شخص آخر رأيته قبل عام، أتذكّر آخر مرّة نظرتُ فيها إلى المرأة، إلى أن تنبّهتُ إلى أنّني لم أولد. ومن لم يولد بعدُ لا يحقُّ له النّظر إلى مرآة. وللحقيقة، لا أعرف ما الذي سيراه لو فعل ذلك.

## التحدّي الأكبر

في ليلة العرس الثانية، تواصل الغناء والرّقص إلى قرب منتصف اللّيل. ورأيت وجوهًا لم أرّها في اللّيلة الأولى. رأيتُ الرّجل الصّخم، وأحببتُ أنّه لم يزل في العرس؛ معنى ذلك أنّه لم يكن

غاضبًا لأنه خَسِرَ، فقد كانت لعبة السيف مثل كل الألعاب الأخرى -مثلما هو الرقص- نوعًا من اللّعب والبهجة، فاحترمتُه كثيرًا.

في نهاية تلك اللّيلة، وصلوا إلى مبارزة لم أرَ مثلها من قبل، ولم أسمع بمثلها من قبل. رأيتُ شباب القرية يُحضرون ثلاثة أحصنة عربيّة أصيلة. أحدها مُهر صغير، والثاني أكبر عمرًا يمكن أن أقول إنّه متوسط الحجم- والثالث حصان كبير في أوج عنفوانه.

أوقفوا الأحصنة الثلاثة في منتصف السّاحة، وسمعتُ واحدًا ممّن جاؤوا بالخيل يصيح. لم يكن سوى الرّجل الصّغير ذي العينين اللّتين تشعان ذكاء، الذي له جسد طفل في عامه الثالث عشر، وتجاعيد رجل في السّبعين من عمره:

- أين أبطال ليلتنا الثانية؟

أحسستُ أنّ كلّ من هناك يعرف ما سيحدث بعد ذلك إلا أنا. كنت حائرًا. رأيتُ الجدّة تقترب منّي؛ فعرفتُ أنّها تريد أن تجلس بجانبني، وأفسحتُ لها. جلستُ.

همستُ لي: "إلّلي اليوم بمصاري، بكرة ببلاش".

ففهمتُ أنّ عليّ أن أنتظر، فاللحظات التّالية ستقول ما لم يشرحه أحدٌ لي.

تقدّم شابّ طويل ونحيفٌ إلى وسط السّاحة، وربّتَ على ظهر المهر الصّغير. تأمّله، ثمّ نظر إلى وجوه الحاضرين وهو يدور حول نفسه. رفع ذراعيه في الهواء، هزّهما كما يهزّ الفلاحون أغصانَ أشجارهم ليتساقط الثّمر منها. ثمّ اقترب من المهر الصّغير، ووضع ذراعيه تحت بطن المهر. أحنى ركبتيه قليلاً، ورفع المهر كما لو أنّ المهرَ خروف لا أكثر.

صقّق له النّاس طويلاً. وعندما انتهى تصفيقُهم، أنزل المهرَ، فزغردت نساء، وغنّت باسمه نساء أخريات.

يا "سامي" يا بطلنا يا بو لعقال

وين نلقى حدا مثلك بين الرّجال؟

## يا "سامي" يا بطلنا ويا عزوتنا

وبين نلقى حدا مثلك في ديرتنا؟

الأغاني والزغاريد بعثت القوة في روح الشاب الطويل "سامي"، فرفع ذراعيه في الهواء، هزهما مرة أخرى، وخيل إلي أنني رأيت ثمارًا تتساقط. وكما فعل في المرة الأولى، دار حول الحصان الثاني متوسط الحجم، ثم دار حول نفسه. وضع ذراعيه تحت بطن الحصان، لكن من هناك أدركوا أنه لن يستطيع رفعه. كان الصمت العميق -صمتهم- مخيفًا، حابسًا للأنفاس.

لم يستطع.

أنزل ذراعيه المغلوبتين، وبقي واقفًا في مكانه قليلًا. وحين استدار، لم يخل وجهه من مسحة حزن، رغم أنه كان يبتسم قائلاً:

"حصان غلب حصانًا، لا عيب في هذا". وقبل جبين الحصان.

غنت النسوة ثانية له:

راسك مرفوع وانت بتظل حصان

عزة وكرامة وكرم طول الزمان

راسك مرفوع وروحك بتردد الروح

وبيك ابتزهر لوزتنا وتشفى لجروح

لوح الرجل للنساء بحطته البيضاء وعقاله.

وارتفع الصوت مرة أخرى، صوت ذلك الرجل الصغير ذي العينين اللتين تشعان ذكاء:

"أين أبطال ليلتنا الثانية؟"

## هزيمة... نصر

لم يكن صعباً عليّ أن أتوقّع من سينزل إلى ساحة التّحدّي.

تقدّم الرّجل الضّخم نحو المُهر الصّغير ورفعهُ كما يمكن لطفل أن يرفع دجاجة. هذا الأمر حبس أنفاس الجميع. لم يستعرض ولم يدُرْ حول المُهر، ولا حول نفسه. كان يريد أن يُنهي كلّ شيء دفعة واحدة، وهو يعمل بسرعة على إعادة الاعتبار لنفسه، وربما لجسمه الضّخم أيضاً.

إذا كنّا صادقين مع أنفسنا، فإنّ الإنسان -أيّ إنسان- لن يكون سعيداً بأيّ هزيمة تلحق به؛ حتّى لو كان هذا الأمر يحدث في مباراة ودّيّة.

لكنّ التّسرّع مُضّرٌ دائماً؛ كما قال الحكماء، وردّد ذلك النّاس من بعدهم.

الحصان الثّاني لم يكن صغيراً كالأوّل، ربّما ضعف وزنه على الأقلّ. تقدّم الرّجل الضّخم، ووضع ذراعيه تحت بطن الحصان، ونظر إلى النّاس هذه المرّة ليتأكّد من أنّ الجميع يرون ما سيفعل. ضوء غريب شعّ من عينيه، وخيّل إليّ أنّي رأيتُ خيطَ عرق ينسابُ على عنقه لامعاً.

فكرتُ: "لماذا لم يخطر ببالي أن أختار رجلاً ضخماً قوياً أباً لي؟!". ووصلتُ إلى نتيجة تقول إنني لا أبحث عن حارس شخصيّ مثل أولئك الحراس الذين يحرسون القادة، أخيف به أصدقائي في المستقبل، بل أريد أباً يُفتنُّ به أصدقائي ويحترمونه لأنّ له شخصيّة خاصّة فريدة.

ألقيتُ نظرة على "خليل". كان ينظر إلى الرّجل الضّخم مترقّباً ما سيحدث، في الوقت الذي رأيتُ فيه خيطَ عرقٍ آخرَ ينساب على وجه الرّجل الضّخم، ويلمع أكثر ممّا لمع الأوّل.

خفق قلبي بشدّة، فمالتُ والدّة "خليل" برأسها نحو أذني اليمنى وهمستُ:

"أرجو من الله أن يمنحه القوّة ليرفع الحصان".

استغربتُ رجاءها، وفهمتُ ذلك.

- أحيانا ينسى بعضنا أنه يلعبُ ونحن نلعب. وذلك الرُّجُل الضَّخم من هذا النَّوع. هذا ما يقوله قلبي لي.

بصعوبة راح الرُّجُل الضَّخم يحاول رُفَع الحصان، في وقت تحوَّلت فيه السَّاحة ومن فيها إلى قلبٍ عملاقٍ يخفق مُنتظِرًا النَّتيجة.

جَملي كان يُحدِّق، واللبَّغاء الذي يراقب من بعيد خائفًا من البشر كالعادة، وعصفور الشَّمس الذي عاد ليقف على نتوء السَّعْفَة التي قطعَها. كان مثل نقطة تلمع في انعكاس النَّار. وتعجَّبتُ: كيف لعصفور أن يسهر إلى هذا الوقت المتأخَّر؟ إلى أن تذكرتُ أن بقاءه في القفص حبيسًا لفترة طويلة دفعه إلى أن يُعوِّض عن الفترة التي أمضاها في الأسر؛ بأن يكون حرًّا أكثر من الطَّيور الأخرى. أيّ عاقل ذلك الذي يمكن أن يقول: "لقد شبعْتُ حرِّيَّةً؟! فالحريَّة ليست طعامًا بل روحًا، ولا يمكن للإنسان أن يقول: شبعْتُ من روعي أو قلبي أو حبي للأشياء الرَّائعة.

... كان الحصان فوق ذراعيه يرتفع ويرتفع، ببطء شديد. ونحن نراقب كيف بدأت حوافرُه تبتعدُ عن الأرض، ثم ترتفع أكثر.

قبل أن يُتمَّ مهمَّته، كان النَّاس يُصَفِّقون، والأغاني تتصاعد:

لوما إنَّك جواد... ما حملت الجواد

يا "أحمد" يا مهيوب في كلِّ لبلاد

لوما إنَّك شجاع وما تخاف الدُّروب

ما جينلنا اليوم يا "أحمد" يا محبوب

بدا لي أنّ إعادة الحصان إلى الأرض مهمَّة لا تقلُّ صعوبة عن رُفَعِه. أعاده بهدوء إلى درجة أحسستُ معها أنّ الجواد لم يعرف إن كان قد ارتفع عن الأرض أم لا.

التفتُ إلى أمِّ "خليل". كانت ابتسامة مضيئة على شفثيها، كما كان وجهها طافحًا بالنور؛ إلى درجة أنني بدوتُ لنفسي مستعدًّا في تلك اللحظة أن أقبلَ بها جدّة، وأن أوقفَ بحثي عن أبٍ وأمِّ.

ذلك الرُّجل الصَّغير ذو العينين اللَّتين تشعان ذكاء، الذي له جسد طفل في عامه الثالث عشر، وتجاعيد رجل في السَّبعين من عمره، قال:

"حتَّى نكون عادلين، سنتركُ بطلنا يستريح قليلاً قبل أن يرفعَ الجواد الكبير، ونسمح لمن يقبل التَّحدِّي أن يتقدّم لرفع المهر ثمَّ الحصان الثاني".

## النَّهَارُ وَاللَّيْلُ

وقف "خليل"، نفضَ جسده كما ينفضُ حصانٌ جسده بعد أن أمضى وقتًا يتمرَّغ فوق التراب، وتوجَّه نحو المهر.

بسهولة شديدة رفعه، حتَّى ظننتُ أن باستطاعته أن يرفعه بيد واحدة لا غير.

لم يكن مُعْتَرًا بنفسه، وهذا أعجبنى. كان صامتًا، لا ينظر إلى أحد منَّا، وأستطيع القول إنَّه كان يُفكِّر في شيء ما، وسيُنبِّتُ لي ضوء النَّهَار ما حَجَبَهُ عَنِّي ظلام اللَّيْلِ.

رَبَّتْ "خليل" على ظهر المهر كأنه يعتذر له، وفهمتُ ما فعله؛ فأنا لا أظنُّ أنَّ المهر الصَّغير يكون سعيدًا إذا رفعه أحدٌ بسهولة؛ فهذا يعني أنه صغير وضئيل الحجم، وأنَّ هناك من الناس من ينظرُ إليه باحترام أقلَّ.

بالنسبة إليّ كنتُ أراه أجمل حصان في تلك السَّاحة. ولو كان مسموحًا لي في تلك اللَّحظة أن أذهب وأهمسَ له برأيي فيه، لذهبتُ فورًا.

لم يكن سهلًا رفع الحصان الثاني، لكنَّ "خليل" رفعه بسرعة استغرقتُ وقتًا أقلَّ من الوقت الذي احتاجه الرَّجل الضَّخم، لا جدال في هذا. أعاد الحصان إلى الأرض، رَبَّتْ على ظهْره، كما فعل مع المهر.

فصَفَّقَ النَّاسُ وَغَنَّتِ النَّسْوَةُ:

لوما إنَّك جواد ما حملت الجواد

"خليل" يا مهيبوب في كلِّ لبلاد

لوما إنَّك شجاع وما تخاف الدَّروب

ما جيتلنا اليوم، "خليل" يا محبوب

وسمعتُ امرأة تقول للمرأة التي تقودُ الغنَاء:

"هذه غنيهاها للأول".

- يا أختي ما أعطوني وقت حتى أعمل واحدة جديدة.

سار "خليل" نحو الجواد الثالث دون أن ينظر إلينا أيضًا. وخيّل إليّ أنه لم يسمع غناء النسوة

له.

نكزتني أمّه هامسةً لي:

- إن شاء الله ما يعملها.

وصل دعاؤها إلى السماء ورجع قبل أن يصل ابنها إلى الحصان. فصاحب الصوت الضخم

والجسد الصغير صاح:

"تستريح ثم تحاول".

وقف "خليل" في مكانه كجذع نخلة غير مزروعة في خُرج جمل، وبصمتٍ استدار عائداً

إلى مكانه.

تقدّم الرّجل الضخم، وكما فعل في المرّة الأولى نظر إلى الناس ليتأكد من أنهم كلّهم ينظرون

إليه. أخذ نفسًا عميقًا، فارتفع صدره إلى مستوى ظهر الحصان، وامتدّت ذراعاها تحت الحصان.

مرّت لحظات لم نعرف فيها إن كان يحاول رفعه أم يحاول استجماع قوّته، وطال الزمن. وحين

رأيتُ خيوط عرق تلمع على جبهته وعنقه، أدركتُ أنه لا يستطيع زحزحته.

انقبضتُ ملامح أمّ خليل بجانبه، وحين ابتعد الرّجل الضخم عن الحصان، وجدتها تقبض

على يدي اليمنى وتشدّ، كما لو أنّها هي التي خسرت.

فغنت النسوة:

"أحمد" الغالي العالي مثل الجواد

صيته طيّب زي قلبه بين العباد

هذا "أحمد" الغالي لَمَنْ بِيُطَلِّ

بيفْتَحُ ورْدَ الجوري ويُفوح الفلُّ

لكن لأعترف، لم يبدُ لي أنّ غناءهنّ كان مُبهجًا للرُّجل الضَّخْم؛ لأنّه لوّح بذراعه لهنّ، ثمّ  
استردّها بسرعة شديدة.

... ثم جاءتْ ساعةُ الحسَم.

## مرّة أخرى

كما حدث في الليلة السابقة، طلبتُ منهم أن يأذنوا لي بالنوم في خيمتي، مع أنني لسبب  
أعرفه أحسستُ أنني مشدودٌ إلى الأرض التي تقف عليها تلك المرأة التي بتُّ أَدعوها جدّتي، وابنها.  
بدأتُ بتسلُّق النخلة، وصدّق ظنّي؛ كان طائر الشمس في مكانه. وما إن وصلتُ إليه حتّى  
رفَّ بجناحيه وطار واختفى.

كانت النّار في الأسفل قد خمدتْ، وكثير من جمرها تحوّل إلى نجوم صغيرة. نجوم في  
الأعلى ونجوم على الأرض.  
وصعدتُ.

... وجدتُ الطيور في انتظاري هناك. ما إن رأيتني حتّى راحت تُصَفّق بأجنحتها.

وسطها جلستُ، بعد أن ابتعد عددٌ منها ليسمَح لي بدخول الحلقة، ثمّ ما لبثتُ أن تجمّعتْ  
حولي في نصف دائرة. الخيمة أمامي، وطائر الشمس على عمود بابها. أمّا البيغاء فقفز ووقف فوق  
ركبتي اليسرى، متأملاً من هناك، فيما الحمامة البيضاء تُراقب لحظات صفائنا وكأنّها تبتسم.

تحدّثتُ الطيور تلك الليلة كثيراً. ولكنني لاحظتُ أنّ كلّ القصص التي قيلت كانت تتعلّق  
بفتيات ذكيّات؛ إذ لم تكن هناك قصّة واحدة عن رجل. ورأيتُ في ذلك اختباراً لذكائي، وشدة في  
ذكائي.

نظرتُ إلى البيغاء أستعين به، لعلّه يقول قصّة أخرى. تتحنح كما يتحنح شاعر جوال، وقال:

"كان ياما كان في قديم الزّمان، فتاة جمالها يفوق ذكاءها، وذكاؤها يفوق جمالها..."

فقلتُ له: "أنتَ أيضاً".

فتظاهر أنه لم يسمعي، وواصل حديثه، ولم أنتبه إلا حينما سمعتُ الطيور تصفّق له بأجنحتها، وهو يقول: "وطار الطير الله يمسيكم بالخير".

سألتُ: "ماذا يدور هنا وأنا لا أعرفه؟"

فقال طائر الشمس جملة واحدة:

"من الجيد أنك أظعتنا وبقيت هنا في هذه القرية".

كانت تلك إشارة واضحة بأن أبقى ليلةً ثالثةً. والحقيقة أنني كنتُ سأفعل، ولا أظنهم كانوا سيسمحون لي بالمغادرة؛ أعني أهل "الهادية". كما أن مغادرتي مع الجمل والنخلة والأرض العالية ستكون أمرًا غير لطيف؛ فأغربُ شيء في العرس كان حضورنا، وهذا الحضور جزء أساسي من فرح الناس ودهشتهم. كما أن جملي ونخلتي وأرضي العالية، بدا كل واحد منهم سعيدًا بتلك الإقامة المريحة.

بعد منتصف تلك الليلة التي سهرنا فيها كما لم نسهز من قبل، رأيت نورسًا يتأرجح بجانبني، ثم يسقط أرضًا؛ غلبه النوم، فقلتُ: "أمامنا يوم طويل، هيا إلى النوم".

قبل أن أصل إلى باب الخيمة، كانت رؤوس الطيور كلها -وأولها البيغاء- قد أصبحت تحت أجنحتها، ولم يكن صعبًا عليّ أن أرى طائر الشمس ينظر إلى الشرق منتظرًا بزوغ صديقته التي حجبها القفص عنه طويلًا.

بقيتُ أفكر في سرّ حكايات الطيور التي كانت كلها عن فتيات ذكيّات. وحين غفوتُ، حلمتُ بحكايات أخرى. الغريب أن الطيور كانت ترويها، وكأنها لا تزال مستيقظة هناك حول الخيمة، وأن كل ما في الأمر أنها ادّعت أنها بحاجة إلى النوم؛ فقط لتدفعني إلى أن أنام.

## سمعتُ صوتًا

سمعتُ صوتَ جدّتي تناديني، فخلتُ نفسي أحلم بها. لكنّ الصّوت عاد ثانية، فصحوتُ.

ألقيتُ تحية الصّباح على الطّيور، ونظرتُ إلى أعلى باب الخيمة، فلم أرَ طائر الشّمس هناك. تعجّبتُ. وسمعتُ صوته، فعرفتُ أنّه يعلم سبب حيرتي وأنا أتلفّت حولي باحثًا عنه. رفعتُ رأسي، كان في الفضاء واقفًا، يرفُّ جناحيه بسرعة. لم يكن في استطاعتي أن أراهما.

تمنّيتُ لي الطّيور يومًا طيبًا، وتمنّيتُ لها ذلك. اطمأنّنتُ، طافتُ حول النّخلة. وما إن لامستُ قدماي سنام الجمل حتّى ابتعدتُ.

"لم تخنّي عيناى صباح أمس". سمعتُ الصّوتَ فعرفتُ صاحبه.

إنّه "خليل".

بدا أليفاً، وكأنّني أعرفه من قبل أن أُولد؛ خطر لي هذا فضحكتُ، وقلتُ: "مَنْ يَعْرِفُ؟ ربّما سأقول له هذا الكلام ذات يوم، ولن يُصدّقني، أو يصدّقني: "كنتُ أعرفك من قبل أن أُولد". هكذا سأقول له، وسيرفعني كما رفع المُهر الصّغير، ويربّتُ على شعري وهو يبتسم.

"أظنّ أنّ جدّتك تنتظرنا. هيا".

كان صاعقًا ما قاله لي، لدرجةٍ أحسستُ معها أنّني قطعْتُ ثلثي الطّريق إلى لحظة ميلادي، ولم يبقَ سوى أن تُطلّ أمّي فجأة لتنتهي رحلتي هذه، وتبدأ رحلتي الثانية.

لو حدّثتُ بعض النّاس بقصّتي لما فهمها أحدٌ. ولذا لم أعترف بها إلا للطّيور والجمل والنّخلة والأرض العالية، لأنّهم أصدّقائي ورفاق رحلتي. أظنّ أنّ كثيرًا من النّاس سيقولون: "وما الذي يجعلك تتخلّى عن أرض عالية لتسير كما النّاس على الأرض العاديّة؟ ولماذا تتخلّى عن طيورك وجملك ونخلتك أيضًا؟ هل تتوقّع أن تجد مثلها في الحياة الحقيقيّة؟ نحن نعرف هذه الحياة. ستقاسي كثيرًا في صُحبتك للنّاس وسعيك لإرضائهم".

وكنْتُ ساقول لهم ببساطة:

"لا شيء أجملُ من أن تكون ابنًا للحياة. فقد جرَّبْتُ العيش خارجها، ورأيتُ من يعيشونها، والفرق بينهما مثل الفرق بين أن نحلم بالطَّيران وكائن يطير، أو إنسان يحلم بالبحر وإنسان يُحرُّ فيه".

## ما لم أعرفه

في ذلك الصّباح فهمتُ أنّ ابن جدّتي الذي ليس أبي تعمّد ألاّ ينتصر في اللّيلة الماضية على خصمه؛ الرّجل الضّخم الذي لا يفتخر بشيء في الدّنيا مثلما يفتخر بجسده. فقد اعترف لي بعد أن سألته:

"لماذا لم ترفع الحصان؟ فأنت في ما يبدو لي تستطيع".

أجابني:

"في المرّة الأولى، حين وضعتُ سيفي على عنقه، أحسستُ أنّي أخذتُ قوّته. ولو انتصرتُ عليه في المرّة الثانية لأخذتُ روحه؛ وهذا كثير جدًّا، بل لا يجوز".

أعجبنى كلامه الذي كان ممثلاً بحكمة عظيمة. ورأيتُ جدّتي -التي نظرتُ إليها لأرى ردّ فعلها على ما قاله- تدعو له:

"الله يرضى عليك كما يرضى قلبي عليك".

فسألتها:

"أنتِ كنتِ تعرفين أنّ ابنك كان قادراً على رفع الحصان الأخير، أليس كذلك؟"

تتفستُ بعمق، ونظرتُ بعيداً كما لو أنّها تستعيد الزّمان كلّهُ، ثمّ قالت:

"سأحدّثك بقصّة. والقصّة تقول إنّ شاباً ألحّت أمّه عليه لكي يتزوّج فتاة لم يكن يُريدها كثيراً، كانت ابنة خاله، وكان هذا الخال رجلاً قاسياً، ويرى نفسه أفضل من الآخرين، حتّى أفضل من أخته الوحيدة. رضي الشابُّ وتقدّم لخطبتها، لكنّ أباهما بدل أن يوافق طلب من خادمه أن يُحضّر له حصانه".

- حصانك جاهز يا سيدي.

وقف الخال، والتفت إلى الحاضرين، وقال:

"اتبعوني".

رَبَّتْ على ظَهْرِ حصانه وقال لذلك الشَّابُّ -ابن أخته- الَّذِي جاء يطلبُ يد ابنته:

"أترى هذا الحصان؟ إذا رفعتُه لدرجة أرى فيها ظَهْرُه أعلى من رأسك، تكونُ ابنتي لك".

ردَّ الشَّابُّ الَّذِي لم يكن راضياً عن طريقة تعامل خاله معه:

"ولكنَّ لي شرطًا واحدًا، أن تمنحني ثلاث سنوات، بعدها أحقق طلبك".

- بل أمنحك أربع سنوات إن أردت.

- ثلاث سنوات تكفي وتزيد، أجاب الشَّابُّ بثقة، وحزنٍ أيضًا.

اختفى الشَّابُّ ثلاث سنوات. وفي يوم ما طَرَقَ باب بيت خاله، وقال:

"أنا جاهز".

فوجئ خاله بعودته؛ إذ لم يسمع -ولم نسمع في حياتنا- عن رجل استطاع أن يحمل حصانًا.

- تفضّل، ها هو أمامك.

تقدّم الشَّابُّ نحو الحصان، واستدار وهو يُنْقَلُ عينيه بين عيني خاله وعيني ابنة ذلك الخال.

وما هي إلا لحظات حتّى كانت حوافر الحصان تبتعد عن الأرض، وجسده يعلو فوق قامة ذلك الشَّابِّ.

ثمّ أنزله.

تقدّم من خاله وقال:

"لستُ فخورًا بأنني استطعتُ رفع الحصان. أنا فخورٌ لأنني رفعتُه ليكون فوق رأسي؛ فهذا مكان الخيول، وهذه مكانتها". وخرج.

وجدتُ نفسي أسأل: "والفتاة؟"

"لم يتزوجها، فأحسّ أبوها بالعار، وغضب. ولذلك وافق بعد أيام- على أن يتزوجها شابٌ آخر كان قد تقدّم لخطبتها منذ سنوات ورفض أن يزوجه إياها لأنه طلب من ذلك الشاب أن يرفع الحصان ولم يستطع".

- ولكن، في ذلك ظلمٌ للفتاة التي تزوجتُ شخصًا لا تحبه.

- بل في ذلك إنصافٌ لها، لأنها كانت تحبُّ ذلك الشاب، ولم تكن هناك وسيلة للزواج منه أفضل من أن يرفع شابٌ آخر الحصان ولا يتزوجها.

عرفتُ في ذلك النهار أنّ آباء الفتيات في تلك القرية وما حولها من قرى يطلبون من الشباب الذين لا يريدونهم أزواجًا لبناتهم أشياء غريبة مستحيلة تمامًا كما طلبَ ذلك الخال- حتى لا يضطروا إلى رفضهم بقسوة، وبذلك يجرحون كرامتهم. في بعض الأحيان، يكون التّحدّي سهلًا إذا كانوا راضين عن الشاب ويريدونه صهرًا لهم.

- كان رافع الحصان وأمه يعرفان هذا منذ البداية، أليس كذلك؟

- أنت شابٌ ذكيٌّ. لقد اتّفقت الأمُّ مع ابنة أخيها على أن تجد لها حلًّا لمسألة رفض أبيها زواجها ممّن تحبّ. ووجد ابنها الذي رفع الحصان ذلك الحلّ، وقبّل التّحدّي؛ فاشتري مهرًا صغيرًا وظلّ يرفعه طوال ثلاث سنوات حتى أصبح حصانًا، فعاد ورفع حصان خاله، وتزوجت الفتاة بمن يحبُّها وتُحبه، ولم يكن ذلك صعبًا، فالناس كانوا يخشون أباهما، والشباب أحسّوا بأنهم لن يتغلّبوا على من رَفَع الحصان مهما فعلوا. وهكذا، كان على من يحبُّها أن يتقدّم لخطبتها وهو يعرف أنّ طلبه هذه المرّة لن يُرفض.

فقلتُ بفرح شديد: "أنتَ ذلك الشاب، وأنتِ تلك الأمُّ، أليس كذلك؟"

- وأنتِ أذكى ضيوف عُرشنا. صدقتُ.

## موافقات

قلتُ في نفسي وأنا أتجوّل حول القرية مع جملي ونخلتي وأرضي العالية، والبيغاء يُراقبنا  
عن بعد:

"لن أغادر هذه القرية -مهما طال الزّمن- قبل أن أتأكّد من أنّ هذا الشابّ سيكون أبي، وتلك  
المرأة ستكونُ جدّتي".

وأحسستُ بالجمال يهزّ رأسه موافقاً، وطائر الشمس الذي ظهر فجأة، ورفّ على مسافة متر  
من وجهي، يُطلق تغريداً لم أسمعُه من قبلٍ منه. ورفعتُ رأسي نحو عنق النّخلة؛ رغم أنّي أعرف  
أنّها لن تستطيع أن تهزّ رأسها، فرأيتُ سعفها يهتزّ كآلاف الفراشات.

## حلول

صعدتُ ما بعد العصر ونمتُ في خيمتي؛ قيلولة كنت بحاجة إليها لأنني لم أنم جيداً في الليلة الماضية. وهكذا، صحتُ على صوت الببغاء يصيح:

"استيقظ، ما هذا الكسل؟ هل تعتقد أنك ستجد أباك وأمك في الأحلام؟ هكذا لن تولد أبداً".

\*\*\*

أصوات الاستعدادات لليلة الكبيرة - كما يدعونها - كانت تغمرُ الأنحاء. وبدل أن أنزل، وجدتُ نفسي أجلس على حافة الأرض العالية، وأتصفح الجهات - كما يقال - مراقباً أولئك القادمين من بعيد إلى القرية، بخيولهم وجمالهم التي تحمل الهدايا.

شيء ما كان يدفعني إلى مراقبة مجموعة من الأشخاص القادمين من الغرب، من جهة البحر. كانت الشمس خلفهم. وكم أحببتُ مراقبة ظلالهم الطويلة التي بدت لي وكأنها تجري أمامهم لتصل إلى ساحة العرس قبلهم.

حين اقتربوا، لمحتُ فتاةً فوق حصان برتقالي - أجل، برتقالي كحبة برتقال - تتقدم. وقبل أن أفكر في ما عليّ أن أفعله، وجدتُ نفسي أنزلقُ على جذع النخلة، واتجه للقائها، لا للقاء أي شخص آخر.

لم يكن الحصان برتقالياً؛ بل كان ضوء الغروب ما منحّه ذلك اللون، ولكن لونه كان غريباً، أو لأقل كان نادراً؛ فهو حصان ذهبي. أمّا الفتاة فكانت تبدو كملكة؛ هكذا سأدعوها. وحين ترجّلت عن ظهر حصانها، ترجّلت كفارس. وقبل أن تلمس بقدميها الأرض، كان "خليل" قد وصل للترحيب بها. ورغم أنه كان يُرحّب بكل من يصل من ضيوف، إلا أن ترحيبه بها لم يكن مثل أيّ ترحيب؛ إذ لمحتُ ارتباكاً وخجله، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أراه فيها على تلك الصورة.

فَرِحْتُ.

## على سبيل اللّعب

تلك اللّيلة كانت غير كلّ اللّيالي. فعلى سبيل اللّعب، واستمرارًا للاحتفال، كان على الحاضرين أن يختاروا فتاةً يتقدّم الشّباب لطلب يدها، وتطلبُ منهم -كما جرتِ العادة- أن يقوموا بشيء ما. فإذا نجح أحدهم فإنّها تقبلُ به خطيبًا لها، فيحتفلون بهما. ثمّ في آخر السّهرة يذهب كلّ واحد منهما إلى بيته وحيدًا.

توقّعت أن يختاروا تلك الفتاة صاحبة الحصان الذهبيّ، الملكة، فقد أسرّت إليّ جدّتي أنّ تلك الفتاة أتعبت كلّ من جاء لطلبِ يدها فعلاً، وكان والدها يحبّها إلى درجة أنّه كان يقول لكلّ من يأتي لخطبتها:

"إذا قَبِلْتُ بكَ زوجًا، قَبِلْتُكَ صِهْرًا".

عند ذلك يعرف الشّابُّ أنّ مهمّته أصبحت أصعب.

\*\*\*

نهض رجلٌ عجوز، يبدو أنّ عمره تجاوز المائة، بقامته النّحيلة المستقيمة كجذع نخلة، وقال: "قبل أن نختار الفتاة التي سنطلبُ من الشّباب ما تريد منهم في لعبة التّحدّي، سأطرح على الفتيات خمسة ألغاز، والتي تحلّ أكبر عدد منها ستكون بطلة ليلتنا هذه. هل أنتم موافقون؟" قال بأعلى صوته الذي بدا صوت رجل قويّ.

"موافقون". تردّدت الأصواتُ في أنحاء السّاحة.

التقتُ إلى تلك الفتاة الملكة، فوجدتها متحفّزة كفرَس على وشك الانطلاق.

قال الرّجل العجوز بأعلى صوته: "شيء كلّما أخذنا منه يكبر، وكلّما زدناه يصغر، ما هو؟"

كانت الفتاة الملكة صامتة، تتصفّح وجوه الجميع باطمئنان، وكأنّها تمنح الفتيات الأخريات فرصة للفوز؛ في وقت كانت الهمسات فيه تتصاعد مثل أصوات خلية نحلّ.

قال الرجل العجوز: "أرجوكم، نحن نمرح. لا أريد أن يكون هناك أي نوع من الغش في هذه اللعبة".

غطى صوته على همساتهم، فصمتوا.

صرخت فتاة قرب نار السهرة المتصاعدة: "العمر".

قال الرجل العجوز: "خطأ".

وصمت الفتيات مرّة أخرى. عندها، قالت الفتاة الملكة:

"الحفرة".

"صحيح". ارتفع صوت العجوز بفرح، وألقى على الحضور لُغزَه الثاني: "فصيح عمره ما تكلم، وقاضِ عمره ما تعلم، مَنْ تعرف الإجابة؟"

عمّ الصمت. حتّى إنّ الهمسات اختفت تمامًا.

أجابت الفتاة الملكة: "الميزان".

بقي الرجل العجوز صامتًا، حتّى ظنّوا أنّها أخطأت. وفي لحظة ممثلة بالترقّب صاح:

"هذا صحيح".

مُجَدِّداً تعالتُ صيحاتُ البهجة، وبدأت أكثر من فتاة غير سعيدات بما يحدث.

"واحد مختبئ خلف جدار يصيح بصوت عالٍ: أنت ابني، لكنني لستُ أبالك. فمن يكون؟"

"أمّه". قالت فتاة لم نرَ أين تقف.

قال العجوز: "صحيح".

وتقدّمت الفتاة من بين النَّاس، وكان أهلها يرقصون فرحين حولها.

نظرتُ إلى الفتاة الملكة، فرأيتها سعيدة، أحببْتُها أكثر.

"ثلاث: واحدة تأكل ولا تشبع، والثانية تمضي ولا ترجع، والثالثة في مكانها تقبع، أي لا تغادره. من تعرف؟"

"هذه صعبة". كانت الأصوات تأتي من أكثر من مكان.

"لا، ليست صعبة. فما دام الذي اخترع هذا اللغز إنسان، فإن هناك إنساناً يستطيع أن يجد له الحل".

عمّت الفوضى أرجاء ساحة العرس، وسمعت صوتاً غريباً كان قادماً من الأعلى. التفتت، ووجدت الببغاء يردد كلاماً غير مفهوم. فقلت: "لعله يعرف الجواب". وتتبه من في الساحة لوجوده، فخاطبه الرجل العجوز:

"لا أعرف إن كنت ذكراً أم أنثى، لكن في الحاليين لا يحق لك أن تشارك".

ضحك الناس كثيراً. وبدل أن يغضب الببغاء، راح يُقلد أصوات ضحكاتهم، فضحكوا أكثر.

قالت الفتاة الملكة: "النار، والدخان، والرماد".

ومرّة أخرى، صمت كل من في الساحة، وكأنها أُفِرغت من الناس.

"صحيح، صحيح، صحيح يا ابنتي، صحيح". ردّد الرجل العجوز بسعادة. وأضاف: "لم تعد هناك ضرورة للغز خامس بعد أن عرفت حلول ثلاثة منها". قال مخاطباً الملكة.

"بل نريد اللغز الخامس. هل نسيت أننا نلعب؟" جاء صوت من بعيد.

"معك حق يا صاحب الصوت الذي جاء من جهة لم أعرفها".

"ذهب إلى القدس، لم يمش على رجليه، ولا حمل شيئاً في يديه، ولم ير شيئاً بعينه، فما

هو؟"

عرفت الإجابة فوراً، لكنني التزمت بقانون اللعبة. ومرّة أخرى، التفتت إلى الفتاة الملكة. كانت تتصفح وجوه الجميع وتبتسم، ثم استقرت نظراتها على وجهي، فارتبكت رغم ابتسامتها التي اتسعت أكثر. أدركت أنها تعرف الإجابة. وطال الوقت قبل أن أسمع فتاة من ورائي تجيب:

"الجنين".

وأتسعت ابتسامة الفتاة الملكة أكثر وهي تتأملني. أما الرجل العجوز فقد صاح:

"صحيح، صحيح، صحيح، صحيح".

وسمعتُ جدتي تهمسُ لي: "هل تعرف لماذا نشرب الشاي؟"

سألتها: "هل هذا لغز؟"

- يمكن أن تعتبره لغزًا.

"لأننا لا نأكله". وضحكت، فضحكتُ.

قلتُ في نفسي: "هل أحسَّتْ جدتي بما أفكر فيه؟ هل عرفتُ قصتي فأرادتُ أن تختبرني

للتأكد من أنني أصلح أن أكون حفيدًا لها؟"

- سؤال آخر: ما الشيء الموجود في كلِّ شيء؟

"الاسم". أجبتُ بسرعة، فابتسمتُ.

- سؤال أخير؛ هذا لاختبار خفة دمك، لا لاختبار ذكائك. هل أنت جاهز؟

- جاهز.

- ما وجه الشبه بين الموز والتفاح والبطاطا؟

- الثلاثة مش برتقال.

ضحكتُ جدتي كطفلة، ففاضتُ دموعها، وهي تردّد:

"والله لم تخطر هذه الإجابة ببالي قطّ".

## حين توقف قلبي

طلب الرُّجل العجوز من الفتاة الملكة أن تتقدّم لتقفّ في منتصف السّاحة، وأن يدخل ثلاثة شباب، لا أكثر، لعبة التّحدّي. مشّت كفرس أسطوريّة، ووقفتُ حيث أشار لها العجوز أن تقف. كانت اللعبة قد بدأت، لكنّ أحدًا من الشّباب لم يجرؤ على التّقدّم منها؛ فكلُّ من تقدّم لخطبتها في بيت أبيها فشِل، كما أنّها استطاعت أن تهزم كلّ الفتيات -أمام الجميع- في لعبة الألغاز. لكنّ شابًا تحرّك، بعد أن تذكر -على ما يبدو- أنّها لعبة. وتحرّك آخر.

كنتُ خائفًا ألا يتحرّك "خليل"، ورأيتُ شابًا يتململ لينهض فسقط قلبي. التفتُ إلى "خليل"، فرأيتُهُ ينهض فجأة. عند ذلك، راحتُ صيحاتُ الفرح تتصاعد. فكّهم يعرفون قصّته مع خاله، وأنّه قادر على التّحدّي.

الفتاة كانت تنظرُ إليه وهو يقترب منها نظرة مختلفة عن تلك التي ألقّتها على الشّابّين الآخرين. أدركتُ ذلك. وسمعتُ أمّه تقول لي:

"سيكون يوم سعده إن قبِلتُ هذه الفتاة به زوجًا. فدائمًا كان يريدُها، ولكنّه كان يرفض أن يخضع لأيّ اختبار بعد الذي حدث له مع خاله. وأظنّه لم يقبل بذلك الآن إلاّ لأنّ الاختبار لعبة. ولكن، إذا أردتَ الحقيقة، فهو لا يريد فتاةً في هذه الدّنيا مثلما يريدُها".

رحتُ أبحثُ عن قلبي الذي سقطَ من صدري لأعيده إلى مكانه. هكذا شعرتُ وأنا أتحمّس التّراب.

حين وصل الشّباب الثلاثة إلى حيث تقفُ الملكة، طلبتُ هي من النّاس أن يُفرغوا ثلاثَ غرف على أطراف السّاحة من كلّ ما في داخلها من أشياء. كانت متباعدة، ولكنّها بحجم واحد تقريبًا.

بسرعة، كان كلّ ما في الغُرف الثلاث خارجها.

"كلّ شيء كما طلبتِ". جاءت الأصواتُ من أكثر من مكان.

تأمّلتِ الملكةُ وجوه الشّباب الثلاثة، وتوقّفتُ طويلاً عند وجه "خليل"، وقالت وكأنّها تخاطبه

وحده:

"هناك ثلاث غرف، من يملأ إحداها تمامًا بما يختار من أشياء قبل الاثنين الآخرين، فأنا خطيبته".

لم يتحرّك الشّباب الثلاثة؛ كانوا يفكّرون. في النهاية، انطلق اثنان منهم إلى بابي غرفتين يركضان، وهما يحملان كلّ ما يجدانه أمامهما من أشياء. أما خليل فتوجّه إلى حيث تجلسُ أمّه وجلسَ بجانبها وسط دهشة الجميع.

حتّى أمّه فوجئتُ بذلك. أمّا الفتاة فكانت تنظر إليه بارتباك، ولعلّها كانت تُفكّر في أنّها طلبتُ منه طلباً فيه إهانة له، هو الذي استطاع أن يحمل حصاناً.

بقيتُ عيناها تراقبانه. مهمومةٌ كانت، وكنتُ لسبب غامض مُتعاظفاً معها. ولأعترف أنّي كنت على يقين من أنّ تلك الفتاة يجب أن تكون أمّي. هل يعقل أن يرفضها؟

خُفتُ كثيراً!

زمنٌ طويل مرَّ والشّابان كلّ منهما يركض من وإلى باب الغرفة التي اختارها. وضعا حطّباً من ذلك المُعدّ لنار السّهرات، وقشّاً. وخلع أحدهما عباءته وحطّته وعقاله، وقذف بها داخل الغرفة، فأحسستُ أنّه لا يعتبر الأمر لعبة. حملاً سروج خيول، وأكياس قمح جاءت كهدايا. وسحب أحدهما عدّة خراف وحشرها في الغرفة، فسحب الآخر حماراً. قاومه الحمارُ كثيراً، لكنّه سار معه في النهاية. لكنّها كلّها -الخراف والحمار- ولّت هاربة بعد أن أدخلوها في الغرفتين.

.. ودفعتُ جدّتي ابنها تدعوه لأن ينهض، فلم يفعل. وازدادتُ حيرةُ الفتاة -الملكة- وارتباكها، حتّى أحسستُ أنّها على وشك مغادرة السّاحة.

قبل أن ينتهيا، وقف "خليل"، وقال: "أطفئوا النّار". وقبل أن يفعلوا، انحنى والتقطَ عُصناً مُشتعلاً، ومضى صوب الغرفة الثالثة، والشّابان يركضان تحت ضوء القمر، يتعثّران، وينهضان،

والعرقُ يتصبَّبُ منهما.

وصل "خليل" إلى الغرفة، دخل. وبعد قليل، فتح الشبَّاك، ثمَّ خرج مُغلَقًا الباب خلفه.

كان الضُّوء المنبعث من فتحة الشبَّاك يُضيء وجهها على نحو ساحر.

لم يمضِ "خليل" باتِّجاه أمِّه هذه المرَّة، بل باتِّجاه تلك الفتاة -الملكة- التي تحرَّكت صوبه. صافحتُه، فعرفوا أنه الفائز. ولكن، كيف يفوز وهو لم يفعل شيئاً سوى فتح شبَّاك الغرفة، وإغلاق بابها وراءه.

أدركتُ فوراً أنه ملأ الغرفة بأجمل ما في الوجود؛ ملأها بالنور، بنور تلك الشعلة التي حملها معه، ووضعها فيها. بل فاز كثيراً لأنَّ النور فاض وغمر قامتها، وملأ أعين كلِّ من كان هناك ببهائه وبهائها.

...

في تلك اللَّيلة غادرتُ القرية مطمئناً.

شمس اليوم الثامن

## حينما بكيتُ

بعد تسعة أشهر وخمسة عشر يومًا، سمعتُ نفسي أبكي، فعرفتُ أنني ولدتُ.  
كنت أريد أن أطمئنَّ على شيء واحد لا غير في تلك الغرفة: أن أرى وجه أمِّي.  
لم تسمح لي بقايا ماء الرِّحم في عينيِّ، ولا الدَّم على جفنيِّ أن أرى بوضوح. فركتُ عينيِّ.  
ضحكتُ...

كانت هي.

وانتظرتُ على أحرَّ من الجمر كي يُطلَّ أبي، وأخيرًا أطلَّ...

ضحكتُ..

كان هو.

## اليوم الثامن

أسبوع طويل، طويل جدًا مرَّ وأنا داخل تلك الغرفة الصَّغيرة.  
في اليوم الثامن، حين خرجتُ محاطًا بيدي أمِّي، فوجئتُ بسبع نخلات عاليات تحيط بالبيت،  
ذكرتني بنخلة واحدة، وتحتها سبعة جمالٍ ذكرتني بجمالٍ واحد، وأرض حمراء واسعة كانت الأزهار  
والأعشاب الطويلة النَّابتة فيها تتمايل كأنها أجنحة للتُّراب، ذكرتني بأرض واحدة، وحولَ بئر الماء،  
على حوضه الحجريِّ، كانت هناك الكائنات الجميلة التي لن أنساها في أيِّ يوم من الأيام؛ كانت  
طيوري واقفة تنظر إليَّ والبيغاء يتوسَّطها.

حاولتُ أن أرى طائر الشمس الفلسطينيَّ بينها، لم أجده. تمنَّيتُ ألا يكون نظري ضعيفاً، وأنني لم أره بسبب ذلك.

صَفَّقَتِ الطُّيورُ بأجنحتها مُرَحَّبَةً بي؛ هذا ما أحسستُهُ. وبعد لحظات، رأيتها تطير، كلُّ إلى الجهة التي يريدُها.

... رُغماً عني، بدأتُ أبكي، وأنا أتساءل: "هل ستعود ثانية؟" ثمَّ أبكي أكثر لأنني لم أر طائر الشمس.

وضعتني أمي في سرير بجانب النافذة، وابتعدتُ، ثمَّ عادتُ، وابتنتُ ثانية. كان ذلك اليوم هو أطول يوم في حياتي.

... وتجدد بكائي قبيل الغروب؛ حينما أدركتُ أنَّ الطيور لن تعود. لكنني وسط حرارة بكائي سمعتُ صوتاً لم يكن صعباً عليَّ أن أعرفه.

صمتُ، ورأيتُ أمي تتوقَّف عن الحركة، وتستدير لتتظر إليَّ، وإليه، إلى مصدر الصوت.

كان طائر الشمس هناك يُرفرفُ بجناحيه، ثم يحطُّ على الغصن الأقرب إلى النافذة.

حدَّق في عينيَّ، في عينيَّ تماماً.

وسمعتُ أمي تهمسُ لي:

"طائر الشمس، طائر الشمس الفلسطينيَّ يقف على شباكك. يا لك من ولدٍ محظوظ!"

طار...

وأشرق وجه جدتي أمامي فجأة. كانت تبتمس بعذوبة لم أرَ شبيهاً لها حتى ذلك اليوم، ولن أرى. انحنيتُ وحملتني، فتأملتُ وجهها بفرح كما لو أنَّ طيور الدنيا كلها فيه.

لكنَّ ابتعاد طائر الشمس ألقني، فرحْتُ أتمتُ أغنية سمعتها في أحد الأعراس ذات يوم:

يا شمس عند المغيب اتفقدي الأحباب

اتفقدي إللي حضر وتفقدني إللي غاب.

\*\*\*

حين عاد طائر الشمس صباح اليوم التالي، لم تكن أمي هناك، ولا جدتي، فسمعتُه يهمسُ لي:

"صحيح أنني أبتعدُ أحياناً، ولا أحدٌ مثلك يعرف السبب. ولكن، كيف خطر ببالك أنني

سأفارقك؟"

لم أُجب عن سؤاله بالطبع؛ فقد كان ذلك أمراً خطيراً لو سمعني أحد. لكنني ضحكتُ، فسمعتُ أمي وجدتي تضحكان في الغرفة المجاورة، فقلتُ في نفسي: "حين يحين وقتُ الكلام، الوقت الذي يتحدثُ فيه الأطفال عادةً، سأحكي لهما قصتي، من أولها... لن أقول إلى آخرها، لأن قصتي لا نهاية لها... فكل ما قلته هو ما عشته حتى اليوم... حتى شمس اليوم الثامن..."

وأنتم.. ما هي حكايتكم

... وأخيراً

أخذتُ أمي - أنا كاتب هذه الرواية- نفساً عميقاً، فاندفع الجنين الذي في رحمها إلى الأمام أكثر، وقالت:

"كانت تلك طفولة جدّكم".

ثمّ التفتت إلينا وسألتنا، أنا وأخواتي وإخوتي، ذلك السؤال المفاجئ:

"وأنتم، ما هي حكاياتكم؟ كلُّ ما أتمناه أن تكون لكل واحد منكم حكاية؛ لأنّ الذي له حكاية لا يمكن أن يموت".

نظر إخوتي إلى وجوه بعضهم بعضاً حائرين.

نظرتُ إلى وجهها. كانت خيبة أملها فينا تقترش ملامحها، فقلتُ:

"أنا لي حكاية" 4.

## عن هذه الرواية

سمعتُ حكاية جديّ مع جَمَلِه أكثر من مرّة من أمّي، خلال طفولتي، إذ كانت تتفخر بها كإرثٍ شخصيٍّ لا يملك أحدٌ مثيلاً له، وسجّلتُها في مطلع التسعينيات من القرن الماضي، فكان عدد كلماتها 498 كلمة، واستخدمت أجزاءً من أحداثها في رواية "طيور الحذر، 1996"، ثم كانت موضوعاً لواحدة من قصائد ديوان "بسم الأم والابن، 1999".

حين رحلتُ أمّي في نهاية تشرين الأول، أكتوبر، 2019، كانت هذه الحكاية هي الأكثر حضوراً بالنسبة إليّ، إذ بتُّ -مثلما كانت أمّي- أفتخرُ بها كإرثٍ شخصيٍّ. وربما ما يجعلني أقول إنها إرثٌ شخصيٌّ -حتى الآن- هو أنني لم أقرأها من قبل؛ وقد قرأتُ الكثير جدّاً من الكتب التي تضمّ حكايات شعبية. ولم أسمعها من أحد؛ رغم أنني سجّلتُ الكثير من القصص من أفواه الناس مباشرة.

لسببٍ ما، أحسستُ أنّ كتابة هذه الحكاية، روايةً، أجملُ هديّة يمكن أن أقدمها لروح أمّي. ولكنني أدركتُ بعد كتابتها، أنّ هناك شيئاً نسيتهُ أمّي أن تقوله لنا؛ لأنّ الحكاية بقيتُ مُعلّقةً، بل تحتاج إلى نصف آخر، وربما تعمّدتُ ألاّ تقول لنا القصّة كلّها، لعلّ أحد أبنائها يكملها على طريقته، وبذلك يخلق إرثاً جديداً لمن سيأتون من بعده من أفراد العائلة! وها أنا قد فعلت حينما كتبتُ ما سمعته منها وكتبت النصف الثاني، مُتمّماً ما رأيتُ أنّه قد غاب من أحداث قصّة يبدو أنّها لا تنتهي..

إبراهيم

## إبراهيم نصر الله

مواليد عمّان، من أبويين فلسطينيين اقتُلعا من أرضهما في عام 1948.

### \* صدر له شعراً (الطبعات الأولى):

الخيول على مشارف المدينة، 1980. المطر في الداخل، 1982. الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق، 1984. نعمان يسترد لونه، 1984. أناشيد الصباح، 1984. الفتى النهر والجنرال، 1987. عواصف القلب، 1989. حطب أخضر، 1991. فضيحة الثعلب، 1993.

الأعمال الشعرية- مجلد ضمّ تسعة دواوين، 1994.

شرفات الخريف، 1996. كتاب الموت والموتى، 1997. بسم الأم والابن، 1999. مرايا الملائكة، 2001. حجرة الناي، 2007. لو أنني كنت مايسترو، 2009. أحوال الجنرال -مختارات، 2011.

عودة الياسمين إلى أهله سالما-مختارات، 2011.

على خيط نور.. هنا بين أليلين، 2012.

طيب مثل قلب سحابة- مختارات، 2017. الحبّ شريراً، 2017.

الأعمال الشعرية الكاملة، 3 مجلدات، 2021

## الروايات

### الملهاة الفلسطينية (الطبعات الأولى):

الأمواج البريّة، 1988. طيور الحذر، 1996. طفل الممحاة، 2000. زيتون الشوارع، 2002. أعراس آمنة، تحت شمس الضحى، 2004. زمن الخيول البيضاء، 2007. اللائحة القصيرة لجائزة البوكر العربية، 2009. قناديل ملك الجليل، 2012. مجرد 2 فقط، 1992.

أرواح كليمنجارو، 2015.

ثلاثية الأجراس، 2019:

ظلال المفاتيح، سيرة عين، دبابة تحت شجرة عيد الميلاد.

طفولتي حتى الآن 2022

شمس اليوم الثامن، 2023

\* الشرفات: (الطبعات الأولى):

براري الحمى، 1985. عو، 1990. حارس المدينة الضائعة، 1998.

. شرفة الهذيان، 2005. شرفة رجل الثلج، 2009.

شرفة العار، 2010. شرفة الهاوية، 2013. شرفة الفردوس، 2015،

حرب الكلب الثانية، 2016. مأساة كاتب القصة القصيرة، 2020.

\* كتب أخرى (الطبعات الأولى):

هزائم المنتصرين- السينما بين حرية الإبداع ومنطق السوق، 2000.

ديواني - شعر أحمد حلمي عبد الباقي. إعداد وتقديم، 2002.

السيرة الطائفة: أقل من عدو، أكثر من صديق، 2006.

صور الوجود -السينما تتأمل، 2008.

كتاب الكتابة: تلك هي الحياة.. ذاك هو اللون، 2018.

ليل المحو.. نهار الذاكرة، شهادات ومقالات، 2020

\* تُرجم عدد من أعماله الروائية إلى الإنجليزية، الإيطالية، الإسبانية، الدنماركية، التركية، الفارسيّة، ونشرت قصائد له بالإنجليزية، الإيطالية، الفرنسية، الألمانية، الإسبانية، السويدية...

\* أقام أربعة معارض فوتوغرافية، وشارك في معرض "كتاب يرسمون": فاروق وادي، جمال ناجي، إبراهيم نصر الله- عمان، 1994.

\* نال عشر جوائز عن أعماله الشعرية والروائية، من بينها:

جائزة فلسطين للآداب، 2022، مؤسسة جائزة فلسطين، أوهايو.

جائزة كتارا للرواية العربية 2020، للمرة الثانية، عن رواية

"دبابة تحت شجرة عيد الميلاد"

الجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) 2018،

عن رواية "حرب الكلب الثانية"

جائزة كتارا للرواية العربية، عن رواية "أرواح كليمنجارو"، 2016

جائزة القدس للثقافة والإبداع (الدورة الأولى)، 2012،

عن مجمل أعماله.

جائزة سلطان العويس للشعر العربي، 1998.

جائزة تيسير سبول للرواية، 1994.

جائزة عرار للشعر، 1991.

## Notes

[1←]

- تمّ التعامل مع كائنات هذه الرواية، لغويًا، معاملةً العاقل.

[2←]

- هو الطائر الوطنيّ لفلسطين. لاحظ الباحثون أنّ لغنائه عدة لهجات حسب المكان الذي يعيش فيه، تمامًا كلهجات الناس المتعدّدة في قرى ومدن فلسطين. طوله من 8-12 سم، ووزنه 8 غرامات تقريبًا. حين أخبرتُ أمّي بذلك قالت إنه بوزن الابتسامة يا إبراهيم!

[3←]

- سنّنا، أي سيّدتنا مريم العذراء.

[4←]

- حكايتي كتبها في رواية "طفولتي حتّى الآن".